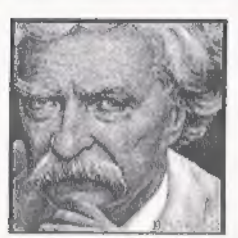
81 | روايات عالمية



تأليف : مارك توين
ترجمة وإعداد : د. أحمد خالد توفيق

المـؤلـف



هـذه هى المـرة الثالثة تقريبًا التى نقابل فيها الكاتب الأمريكى العظيم صمويل لانجهورن كليمنز . ولو كنت من قراء هذه السلسلة فعلاً فأنت تعرف أن هذا هو الاسم الأصلى للكاتب الساخر مارك توين Mark Twain ، أمير الساخرين ، وأطول لسان يمكن أن تقابله فى نصف الكرة الغربى . كما لا بد أنك تعرف أن معنى اسمه المستعار هو (علّمْ على اثنين) وهى من نداءات الملاحة فى نهر المسيسبى الذى شكل جزءًا بالغ الأهمية من حياته وكتاباته .

ولد فى نوفمبر عام 1835 فى قرية اسمها هانيبال بولاية ميسورى . هذه نشأة مهمة جدًا فى أدبه .. ولعل هناك خيوطًا كثيرة من توم صوير فى شخصية توين نفسه .

عمل لفترة طويلة كمرشد سفن فى المسيسبى ، وهى التربة التى وصفها فى كتاب (حياتى على المسيسبى) ، ويقول فيه إنه كان يعتقد أن مهمة الدليل سهلة وهى إبقاء السفينة فى النهر !.. ثم اكتشف أن عليه حفظ كل عمق وكل منحنى وكل صخرة فى هذا النهر . كان يعرف أن السفن تبحر ليلاً ، لكنه لم يتصور قط أن هناك رجلاً يترك فراشه الدافئ ليفعل هذا .. وهذا الشخص هو توين بالذات !!!

نعرف كذلك أن شعر رأسه ابيضّ فى دقائق ، عندما رأى حريق سفينة .. والسبب أن السفينة كانت تحمل أخاه هنرى . الحقيقة أن هذا الكاتب الساخر رأى أقدح المصائب فى حياته ؛ ومنها وفاة زوجته الحبيبة وابنته وصديق عمره .

جرب الكثير من المهن ، وجرب التجارة وفشل فى كل شىء تقريبًا ، ثم اندمج فى عالم الصحافة وقدم رواياته الأولى .

فى الأعوام التالية صنع توين شهرته ككاتب ساخر عبقرى يشكل أهم أعمدة الأدب الأمريكى ، وقدم قصة (مغامرات توم صوير — 1876) و(مغامرات هاكلبرى فين — 1884) التى خرج الأدب الأمريكى كله من عباءتها كما قالوا ، وهناك (الأمير والصعلوك — 1881) ، والقصة التى بين يديك الآن وعنوانها الأصلى (يانكى من كونكتيكات فى بلاط الملك آرثر — 1889) ، وقد غيرت العنوان ليكون مفهومًا نوعًا ، كما قمت بكثير من الاختصار لأن النص الأصلى بالغ الطول . فى العام 1906 منح درجة الدكتوراه الفخرية فى الأدب من جامعة أكسفورد . وقد حكى عن هذا ساخرًا قائلاً إنه فخور جدًا بهذه الدكتوراه التى لم يتعب فيها ، خاصة أنه لا يفهم معنى (دكترة الأدب) أصلاً . الحق أنه نال شعبية كبيرة لدرجة أن حفلات قراءة كانت تقام له ، وكان الناس يبتاعون التذاكر كدور السينما ، ليدخلوا ويشاهدوه وهو يتلو أجزاء من قصصه .

جرب توين أن يمول الكثير جدًا من الاختراعات ، وفى كل مرة كان يخسر الكثير من المال ، ولهذا رفض بقسوة مشروعًا جديدًا بدا له سخيفًا ..

كان المشروع لمخترع أسكتلندى اسمه (جراهام بل) يقضى بأن يكلم الناس بعضهم عبر الأسلاك !... لقد رفض توين المشاركة فى الهاتف !

كما توقع توين مرارًا ، فقد ولد فى اليوم الذى ظهر فيه مذنب هالى .. وهذا المذنب يظهر كل 75 عامًا لذا توقع أن يموت فى يوم ظهوره التالى ، وهو ما حدث فعلاً .

د . أحمد خالد

كلمة تفسيرية

كنت أزور قلعة ورويك عندما قابلت رجلاً غريب الأطوار سوف أتكلم عنه هنا . شدنى بثلاثة أشياء : بساطته العفوية وإلمامه بالدروع القديمة وطيب معشره حيث ظل يتكلم طيلة الوقت . صرنا فى مؤخرة القطيع الذى يقوده المرشد السياحى ، فبدأ يقول أشياء أثارت شغفى . كان يتكلم عن عصر آخر وبلد بعيد . شعرت كأننى مسحور أجول وسط الظلال والقدم . كان يتكلم عن سير لانسلوت .. سير بيديفير .. سير جالاهاد ، كأنه يتكلم عن أصدقاء حميمين . ثم استدار لى وقال كأنه يتكلم عن الطقس أو شيء عادى :

ـ « هل سمعت عن تناسخ الأرواح ؟ »

قلت له إننى لم أسمع عن ذلك .. كان متحمسًا لدرجة أنه لم يلحظ إن كنت قد قلت نعم أم لا . وكان الدليل يتكلم قائلاً :

ـ « درع عتيق من القرن السادس وعهد الملك آرثر . قيل إنه يخص السير ساجامور .. لاحظوا الفتحة الدائرية فوق الثدى الأيسر .. ربما نجم عن رصاصة أطلقها جنود كرومويل بعد اختراع السلاح النارى . »

ابتسم مرافقى ابتسامة من نوع كان مستعملاً فى الماضى ، وغمغم لنفسه :

ـ « أنا رأيت هذا .. أنا فعلتها بنفسى ! »

أصابنى الذهول من كلامه لكنه كان قد رحل ..

فى تلك الليلة جلست أرمق الدروع على وهج النار ، وجلست أراجع كتاب سير توماس مالورى الساحر بما فيه من مغامرات . ورحت أحلم .. قرأت قصة أخرى قبل منتصف الليل . وكانت تقول :



كيف ذبح سير لانسلوت عملاقين وحرر القلعة

حالاً جاء عملاقان مسلحان مدججان بالدروع ، وفي يد كل منهما هراوة مخيفة . هوى سير لانسلوت على أحد العملاقين وأطاح برأسه . حين رأى رفيقه ذلك جرى بعيداً خائفاً ، لكن سير لانسلوت مضى خلفه وهوى عليه بالعصا . دخل القلعة فرأى سيدات وعذارى يركعن أمامه ويشكرنه على الخلاص . قلن إنهن لبثن سجينات هنا سبع سنوات ، وقلن إنه فارس شجاع عظيم قام بأشجع عمل يمكن لفارس أن يقوم به . سوف نصلي لك ونذكر اسمك .

قال لهن إن اسمه سير لانسلوت دو ليك . وتركهن وأوكل أمرهن لله . وركب حصانه وانطلق يجوب الوديان والغابات . وجد كوخاً فيه سيدة عجوزاً طيبة منحته المأوى . عندما جاء وقت الراحة اقتادته مضيفته إلى علية فوق غرفة النوم لينام ، ففك سلاحه ودخل الفراش .

بعد قليل جاء أحدهم متلهفاً ودق على الباب . نظر سير لانسلوت من النافذة فرأى ثلاثة فرسان يتقدمون نحو الرجل ، وانقضوا عليه فراح يدافع بالسيف عن نفسه . قال سير لانسلوت : سوف أدافع عن هذا الرجل الوحيد لأنه من العار أن يهاجم ثلاثة رجلاً واحداً . فلو مات الرجل لاعتبر نفسه شريكاً في موته . واندفع نحو الرجال وصاح : هاجموني واتركوا هذا الرجل .

ترك الرجال ضحيتهم وانطلقوا يبارزون سير لانسلوت ، وحاول الرجل ـ سير كاي ـ أن يساعد لانسلوت ، لكن الأخير قال له أن يتركه يقاتلهم وحده . وبست ضربات أسقط الرجال الثلاثة .

توسل له الرجال أن يتركهم أحياء ، فطلب منهم الولاء لسير كاي .. رفض الرجال ذلك فقال لانسلوت :

ـ إما أن تقبلوا أو تموتوا .. سوف تعودون لبلاط الملك آرثر لتعلنوا الخضوع له .. وهناك تضعون أنفسكم تحت تصرف الملكة جنيفر ، وقولوا إن سير كاي أرسلكم لتكونوا سجناء عندها .

في الصباح المبكر ارتدى سير لانسلوت دروع سير كاي وركب حصانه وودع مضيفته .. صحا سير كاي ووجد أن لانسلوت غير موجود . ثم أدرك أنه ترك له دروعه وحصانه .. هكذا يخدع الناس ويحسبونه لانلسوت .

وضعت الكتاب فسمعت دقة على الباب وجاء الغريب . ناولته غليوناً ومقعداً وبعض الويسكي السكوتش الساخن . كنت أتمنى أن يبدأ في سرد قصته .. بعد كأس رابعة بدأ يحكي بطريقة بسيطة .



قصــة الغريب

أنا أمريكى ... ولدت فى هارتفورد بولاية كونكتيكات .. أنا شمالى ابن شمالى . كان أبى حدادًا وعمى طبيب خيول ... ومارست المهنتين معًا . ثم ذهبت لمصانع الجيش وتعلمت مهنتى الحقيقية وصنعت كل شىء : بنادق .. مسدسات .. مدافــع .. محركــات . ومع الوقــت ترقيــت وصرت رئيسًا أشرف على نحو ألف رجل يعملون تحت إمرتى . مع قوم كهؤلاء لا بد من عراك ومشاكل ، وقد تلقيت ضربة بعتلة على رأسى أثناء مشاجرة مع رجل يسمونه هرقل .. فشعرت بأن كل عظمة فــى جمجمتــى اصطدمت بجارتها . أظلم العالم ولم أعرف أين أنا .

عندما استعدت وعيى كنت تحت شجرة بلوط على العشب وأمامى منظر ريفى جميل . كان هناك رجل على جواد ينظر لى .. رجل كأنه خرج من كتاب مصور .. يلبس دروعًا عتيقة كاملة ومعــه ســيف ودرع ورمــح ، وحصانه يلبس الدروع وله قرن فى رأسه ..

قال لى :

ــ « هلا فعلت يا سيدى ؟ »

ــ « فعلت ماذا ؟ عد للسيرك الذى جئت منه وإلا أبلغت الشرطة . »

هنا تراجع الرجل للخلف ثم اندفع نحوى بأسرع ما اســتطاع ورمحــه مصوب أمامه . أدركت أنه جاد فسرعان ما كنت فوق الشجرة قبل أن يصل .

كان مصرًا على أننى صرت أسيرًا له فحاولت أن أصل لاتفــاق .. ســوف أمضى معه مقابل ألا يؤذينى . هبطت من الشجرة ومشيت جوار حصانه . مشينا فى أماكن مألوفة لكنى لم أر سيركًا أو مكانًا يبدو كسيرك . قــررت أنه على الأرجح ليس من سيرك ولكن من مستشفى أمراض عقلية . سألته عن أى مسافة تبعد عن هارتفورد فقال إنه لم يسمع عنها قط .

رأينا قرية يلتف حولها نهر وقربها تغفو هضبة ، وهناك قلعة فتساءلت :

ــ « هل هذه بريدجبورت ؟ »

قال :

ــ « بل كاميلوت » .

بدأ النعاس يتسرب لعينى مرافقى فابتسم ابتسامة غامضة من ابتساماته وقال :

ــ « لا أستطيع مواصلة السرد لكنى كتبت القــصة .. تعــال واقرأهــا لو أردت . »

ثم أحضر لى كتابًا بخط اليد وأشار لمقطع أراد أن أبدأ منه وقال :

ــ « ابدأ من هنا .. أنت تعرف ما سبق .. »

خرجت من المكان وجلست جوار النار ورحت أتفحــص الوثيقــة التــى اصفرت من فعل الزمن . هنالك كتابة بخط الرجل لكنى أرى تحتهــا علــى الرقائق كتابة عتيقة بكلمات لاتينية . بدأت أقرأ ...

قصة الأرض المفقودة

الفصل الأول

كاميلوت

باقى قصة الغريب :

قلت لنفسى :

ـ « كاميلوت .. متى قرأت هذا الاسم ؟ ربما كان اسم المصحة » .

كان نهار صيف جميلاً ، والجو يعبق برائحة شجية وصوت الطيور .. لا شيء يتحرك .. هناك آثار عجلات على جانبى الطريق . عجلات سميكة بحجم كفك . جاءت فتاة شقراء فى العاشرة من عمرها يحيط بها شعر أصفر جميل ، وتضع تاجًا من الزهر ..

لم يبد رجل السيرك اهتمامًا بها وكذا لم تهتم الفتاة بنا كأنها تمر جوار بقرتين ، ثم رأتنى فتصلبت كأنها تمثال .. صارت صورة من الرعب الممزوج بالذهول . ثم هربت .

اقتربت مع الفارس من المدينة .. بدأت المعالم تتضح . من حين لآخر ترى كوخًا متداعيًا وحوله حديقة خضراء صغيرة . وكان هناك رجال ملوحو البشرة لهم شعر طويل مجعد يتدلى على أكتافهم . وكانوا يلبسون سترات خشنة قصيرة . الأطفال الصغار كانوا جميعًا عراة لكن لا أحد يهتم . كانوا جميعًا ينظرون لى فى فضول ..

وكانت هناك عدة بيوت حجرية بلا نوافذ والشوارع أقرب لأزقة متعرجة غير مرصوفة . الكلاب والخنازير كانت تتنقل بحرية تامة . كنا نتسلق باستمرار نحو القلعة . هناك كان حراس يضعون شعار التنين على ثيابهم ، وانفتحت أبواب القلعة وهبط الجسر المعلق . وجدنا أنفسنا نقف فى الهواء بين أربعة أبراج عملاقة ، وكانت هناك طقوس احتفالية . وكان هناك استعراض للألوان الزاهية مع حركة لا تتوقف .

* * *



الفصــل الثانى

بلاط الملك آثــر

تسللت جانبًا ولمست رجلاً من العامة على كتفه وسألته بطريقة أقــرب للتلميح :

ــ « سيدى .. هل أنت تعمل فى مستشفى المجانين أم أنك فى زيارة ؟ »

نظر لى فى غباء ، فقلت :

ــ « أعتقد أنك مريض هنا » .

ابتعدت عنه وأنا أفتش عن واحد عاقل يعطينى بعض المعلومات . دنوت من واحد وسألته :

ــ « هل لى أن أرى المدير . لحظة واحدة » .

ــ « أرجو ألا تسمح لى .. »

ــ « أسمح بماذا ؟ »

ــ « لا تعطلنى إن كانت هذه اللفظة تناسبك أكثر .. »

وفهمت أنه طباخ ولا وقت عنده للثرثرة برغم أنه يتمنى معرفة مــصدر ثيابى العجيبة . دنا منى فتى آخر يلبس بنطالاً ضيقًا بلون الجمبــرى ممــا جعله يبدو كالجزرة .. أدركت أنه طيب الشمائل . نظر لى متفحصًا وقــال إنه وصيف وإنه جاء من أجلى . وسرعان ما دخل فى حديث متدفق ساخن

كأننا صديقان قديمان . وسألنى عن نفسى وثيابى .. وفجأة قال إنــه ولــد عام 513 .

شعرت بقشعريرة وتوقفت وسألته :

ــ « قل ببطء .. متى ولدت ؟ »

ــ « 513 . »

ــ « لا يبدو هذا عليك . قل لى يا صاحبى .. هل أنست بكامــل قــواك العقلية ؟ »

ــ « نعم . »

ــ « وهذا المكان ليس مصحة عقلية للمجانين ؟ »

ــ « لا .. »

ــ « إذن أين أنا ؟ »

ــ « فى بلاط الملك آرثر !.. 19 يونيو عام 528 .. »

سقط قلبى فى قدمى .. معنى هذا أننى لن أرى رفاقى ثانية .. لن يولدوا قبل 1300 سنة ..

كنت أصدقه ولا أعرف السبب . كنت أعرف أن هناك خسوف شمس كليًا وقع فى القرن السادس يوم 21 يونيو . ويبدأ بعد الظهر . لو حــدث هــذا الخسوف بعــد يومين فــإن الفتى يقول الحقيقــة . لننتظــر إذن اللحظــة المناسبة ..

لو كان كلام الفتى سليمًا فأنا أسبق هؤلاء القوم عقليًا بـ 1300 سنة وهذا معناه أننى سيدهم . سألت الفتى :

ـ « هل لى أن أسألك عن بعض الأشياء ؟ ما اسم هذا الذى جاء بى هنا ؟ »

ـ « سيدك وسيدى ؟.. هذا الفارس العظيم السير كاى سينتشال .. وهو أخو الملك بالرضاعة » .

حكى لى قصة طويلة ، لكن الجزء الذى اهتممت به هو أنهم سيلقون بى فى جب وأظل هناك آكل أكلاً شحيحًا إلى أن يأتى رفاقى ليدفعوا لى فدية ، ما لم أتعفن أولاً ، وقد بدا لى الاحتمال الأخير أقرب للممكن . أخبرنى الفتى كذلك أنه فور انتهاء المأدبة والخمر سوف يستدعينى السير كاى ليعرضنى أمام الملك آرثر وفرسان المائدة المستديرة . سوف يحكى لهم كيف قبض على وسوف يكذب ، لكن ليس من مصلحتى أن أحاول التصحيح .. بعد هذا إلى الجب .

جاء من يدعونى للقاعة .. كانت مزدحمة بالجمهور والموسيقيين والزخارف .. فى المركز كانت مائدة من البلوط ضخمة كأنها بحجم حلبة السيرك . وحولها جلس حشد من الرجال بثياب ملونة زاهية بعضهم يشرب الخمر فى قرون ثيران ، وبعضهم ما زال يمضغ قطعًا من اللحم . وجوار كل رجل هناك كلبان ينتظران ما سيلقى لهما من عظام .. فإذا رمى بالعظمة انقضا عليها ونشبت معركة .

كانوا يتكلمون بطريقة تليق ببلاط الملوك ، لكن فى كلامهم الكثير من السذاجة .. والكثير من الكذب .

لم أكن الأسير الوحيد .. كان هناك نحو عشرين أسيرًا ، معظمهم ممزق الثياب منهك والبعض تلطخ وجهه بالدم ، لكنهم لا يشكون أبدًا .. قلت لنفسى إن هؤلاء قد أتوا الكثيرين من قبل لذا يعتبرون ما يحدث لهم عدلاً ، ولا يتوقعون حسن معاملة .

* * *



الفصل الثالث

فرسان المائدة المستديرة

كانت المحادثات كلها تدور حول القتال وكيف تم أسر هؤلاء .. كانوا أقرب للأطفال فى كونهم يقاتلون بعضهم بلا سبب على طريقة الصبية : « أنا أقدر أضربك . » . سوف تفتن بعد قليل بهذه الأحاديث وتشعر بأنها خالية من العقل .. لكن لا بأس .. فالعقل قد يفسد هذه الجلسة .

رأيت مجموعة من الأسرى يزحفون على ركبهم نحو الملكة فيسجدون ، طالبين منها أن تصفح عنهم أو تجلدهم أو تفعل ما تشاء . قالوا إن السير لانسلوت قد هزمهم جميعًا وجعلهم عبيدًا للملكة ، وقد تخفى فى دروع وسلاح السير كاى .

نهض رجل مسن مدثر بثياب سوداء .. وكانت قدماه تترنحان . كان يتكلم بصوت واهن وعينين دامعتين . قال لى الصبى الوصيف الذى عرفت أن اسمه كلارينس :

— « تبًا .. سوف يحكى تلك القصة التى يرددها طيلة الوقت » .

— « من هو ؟ »

— « مرلين .. الكذاب والساحر .. لكن الرجال يهابونه لأن الرعد والبرق والشياطين فى صفه .. »

أراح الفتى رأسه على كتفى وغرق فى نعاس عميق ، وكذا فعل الحضور والكلاب .. البعض أراحوا رءوسهم على سواعدهم والبعض أرجعوا رءوسهم للخلف وراحوا يغطون . وراح الذباب يئز وراحت الفئران تسرح هنا وهناك شاعرة أنها فى بيوتها . كان مرلين يحكى قصة طويلة بدت لى طريقة مسلية ، لكننى تذكرت أن الرجال يسمعونها للمرة الألف فيمكن فهم حالة الملل هذه .

بعد انتهاء القصة أفاق سير (ديناذان) مضحك الملك فقرر أن ينعش الناس بدعابة سخيفة . ربط بعض الأوانى لذيل كلب وتركه يركض محدثًا صخبًا وخلفه الكلاب تطارده وتعوى .. وككل المضحكين كان ديناذان هو أول شخص ضحك كثيرًا على هذه النكتة . ثم بدأ يلقى خطبة مضحكة .. لم أسمع فى حياتى كل هذه النكات السخيفة القديمة فى خطبة واحدة . من القسوة أن أسمع نفس النكات التى سأسمعها فى طفولتى بعد 1300 عام .

نهض سير كاى ليحكى للقوم كيف وجدنى .. وكيف كنت وسط قوم برابرة كلهم يلبسون هذه الثياب الغريبة التى ألبسها . قام بالقضاء على سحرى الشرير عن طريق الصلاة ثم عاد بى أسيرًا ليعرضنى كعجيبة يراها الملك آرثر وبلاطه . قال إننى حاولت الهرب منه فوثبت فوق شجرة ارتفاعها عشرون مترًا ، لكنه قذفنى بقطعة حجر بحجم بقرة . وقال إننى سأموت عند ظهر اليوم الحادى والعشرين .

كان القوم خائفين بسبب القوى السحرية الغامضة المتوارية فى ثيابى الغريبة ، لكن مرلين نهض واتهمهم بالغباء ، وقال : لماذا لا تجردونه من ثيابه ؟

هكذا سرعان ما كنت عاريًا تمامًا . وكنت فى غاية من الحرج لكن لا أحد يهتم أو يشعر بالخجل لى .. كانوا يتحدثون عنى كأننى كرنب . قالت الملكة فى اهتمام إنها لم تر ساقين كساقى من قبل .. هذه هى المجاملة الوحيدة التى تلقيتها لو كانت مجاملة !

ألقوا بى فى جب مظلم وتركوا لى بقايا طعام للعشاء وبعض القش للنوم فوقه ، والكثير من الفئران للصحبة .

* * *

الفصل الرابع

إلهام

كنت مرهقًا فلم تستطع مخاوفى أن تبقينى ساهرًا . لابد أننى نمت طويلاً وعندما صحوت قلت لنفسى :

ـ « هذا حلم غريب .. سأنام بعض الوقت ، ثم أنهض لأنهى معركتى مع (هرقل) » .

هنا سمعت صوت السلاسل والأقفال ورأيت الوصيف يقف أمامى فشهقت !... وقلت :

ـ « أما زلت هنا ؟ ارحل مع الكابوس . »

لكنه ضحك بطريقته الخفيفة ، وقد راق له المأزق الذى أنا فيه .

قلت له : إننى مؤمن أن الملك ارثر لا وجود له ، وإننى أحلم بأننى أراه أمامى . فقال :

ـ « هل هو حلم كذلك أنك ستحرق غدًا ؟ »

هنا أصابتنى صدمة وأدركت أن موقفى خطير حلمًا كان أو لا .. قلت له :

ـ « صديقى .. أريد أن تساعدنى على الفرار من هنا . »

ـ « كيف ؟ الأبواب يحرسها رجال مسلحون »

ثم ارتجف رعبًا ودنا ليقرب فمه من أذني .. وقال :

ـــ « الساحر مرلين قد ألقى تعويذة على هذا الجب .. ما من رجل يجسر على اختراق هذه من أجلك . والآن كن كريمًا معي فلا تحني وإلا ضعت » !

ضحكت ضحكة منتعشة وقلت :

ـــ « مرلين هذا المهرج العجوز . هذا الجحش !.. هذا المخرف » .

لكن الفتى راح يرتجف :

ـــ « آه .. أوقف هذه الكلمات قبل ان تسقط هده الجدران فوقنا في أي لحظة . استعدها ! »

هنا صحت فيه :

ـــ « قم وقف على قدميك .. هل تعرف لماذا ضحكت ؟ لأنني أنا نفسي ساحر .. »

وقف الفتى متصلبا في احترام ، فخطر لي أن الكذاب لا يحتاج للبرهنة على كلامه هنا . الناس تأخذ كذبك كقضية مسلم بها . فأكملت كلامي .

ـــ « عرفت مرلين في مصر منذ 300 سنة . دائما يلاحقني .. ليس بارعًا على الإطلاق ويصلح فقط للريف .. لهذا أطلب منك خدمة .. سوف تخبر الملك أنني ساحر عظيم وسوف يكون انتقامي مخيفًا لو أصابني أي ضرر » .

كان الصبي خائفًا فلم يتكلم . فلما رحل خطر لي أنني كشفت عن حماقتي .. لو كنت ساحرا عظيم بحق فلماذا أطلب عون فتى ضعيف كهذا ؟ ثم قررت أن هذه الكائنات لا تملك المنطق ولا تستطيع وضع الحقائق جوار بعضها .

سمعت صوت الخطوات فأصابني الذعر .. كان يجب أن أرتب حيلة تجعل كلامي مقنعًا أولاً .. لكن لا وقت لعقلي كي يعمل . ثم وجدت الفكرة .. الخسوف !. . لا بد أنها حيلة لعبها كورتيز من قبل وبوسعي أن ألعبها .

جاء الفتى مذعورًا وقال :

ـــ « نقلت رسالتك لجلالة الملك وقد اقتنع بالكلام ، لكن مرلين ظهر وأقنعه أنك مخبول وتساءل عن سبب عدم ظهور مواهبك العظيمة . لأنك لا تملكها .. »

قلت للفتى في وقار :

ـــ « ما هو اليوم ؟ إنه اليوم 20 أليس كذلك » ؟

ـــ « بلى » .

ـــ « وسوف يحرقونني غدًا .. متى » ؟

ـــ « عند الظهر » .

بدأت أتكلم بصوت رهيب يتعالى مع الوقت . وبوقار شديد .. وقلت :

ــ « قل للملك إنى سأخنق العالم كله بالظلام فى تلك الساعة .. سوف تذبل نباتات الأرض ويتضور الناس جوعًا » .

فقد الفتى وعيه فحملته بيدى وأسلمته للحرس .

* * *

الفصل الخامس

الخسوف

غرقت فى القلق طيلة الليل لكنى عزيت نفسى بأن الخسوف آت لا محالة ، وعندها سأكون أعظم رجل فى المملكة . بل إننى بدأت أستبق لحظة الحرق هذه لأمر بهذا التحدى العظيم ..

لكن فى الوقت نفسه كان شىء ينبش فى عقلى . القلق .

انفتح الباب ودخل بعض الرجال المسلحين وقال قائدهم :

ــ « المحرقة جاهزة .. هلم » .

وتد المحرقة !... تخلت عنى شجاعتى وكدت أفقد الوعى . من الصعب أن تتنفس .. واستطعت فى النهاية أن أقول :

ــ « هذا خطأ .. الإعدام يتم غدًا » .

ــ « لقد قدموه يومًا .. هلم ! »

هكذا لم أعرف ما أفعله . شعرت بحيرة بالغة وخرجت معهم من الزنزانة عبر شبكة ممرات إلى ضوء النهار الساطع ، ورأيت الوتد هناك فى وسط ساحة القلعة . وحوله بعض القوم وراهب . وكان الملك والملكة يجلسان فى مكان الصدارة .

من مكان ما ظهر الوصيف الشاب وراح يهمس في أذني :

— « قلت لهم إن قوتك في السيطرة على الشمس لن تبلغ ذروتها إلا غدًا .. فإذا أردنا إنقاذ الأرض والشمس فعلينا قتلك اليوم .. هكذا خدعتهم .. إنهم متعجلون يريدون إنهاء القصة ، وكل ما عليك هو أن تجعلهم يرون بعض الظلام .. سوف يفترضون أنني أحمق ويطلقون سراحك . اذهب للمجد لكن تذكر صاحبك القديم .. »

اختنقت بالكلمات . لم أجسر على أن أخبره أن طيبته وبلاهته عجلتا بموتي .

كان الصمت كاملاً ، لدرجة أنهم لو عصبوا عيني لحسبت نفسي في زنزانة ولست محاطًا بأربعة آلاف رجل . قيدوني للوتد بسلاسل . كوموا الخشب عند قدمي ثم جاء أحدهم بمشعل .. وجاء الكاهن يشير للسماء ويتلو كلمات باللاتينية . ثم رأيته يتصلب ويشهق .

الخسوف قد بدأ .. !.. لقد أخطأت بيوم كامل ..

رأيت حافة الظلام تزحف على قرص الشمس . فراح قلبي يدق كالطبل . وراحت الصرخات تدوي .. ورأيت مرلين يحاول أن يشعل الخشب بنفسه فصحت :

— « قف حيث أنت !... لو تحرك أحد حتى الملك نفسه فلسوف أقتله بالرعد .. »

صاح الملك :

— « الرحمة يا سيدي ... قيل لنا إن قواك لن تصل ذروتها إلا غدًا . افعل ما تريد لكن حافظ على الشمس ! »

كنت الآن أسيطر على الموقف تمامًا .. لكن كيف لي أن أوقف الكسوف ؟ إنه يتزايد مع الوقت ولا حيلة لي في ذلك وعدتهم ألا يطول الظلام أكثر من ساعة .. فلم أكن أذكر الفترة التي يدوم فيها .

صاح الملك :

— « حرروه من قيوده . ورحبوا به جميعًا .. لقد صار ذراع الملك اليمنى .. يملك القوة والسلطة .. فقط أعد لنا الضياء »

ثم هتف في رجاله :

— « بدلوا ثيابه ليبدو كأمير .. »

كان الظلام يتزايد .. ليس بوسعي عمل شيء طبعًا .. الناس تصرخ ذعرًا لشعورها برياح الليل الباردة تهب ظهرًا ولرؤية النجوم . نهضت بعد مرور الوقت وقلت بصوت عالٍ :

— « فليزل السحر وليعد النور » .

لم يحدث شيء للحظات ثم فجأة بدأ هلال يظهر من الشمس فتعالى الصياح والتهليل .. والتفوا حولي يطلبون البركة .

* * *

الفصل السادس

برج مرلين

لقد صرت الشخص الأهم في المملكة بعد الملك .. لم أكن مستريحًا في تلك الثياب لكني قدرت أن العادة ستجعلني أعتادها . كل شيء فخم لكن وسائل الراحة الصغيرة التي أعتبرها أهم شيء في الحياة غير موجودة .. لا صابون .. لا ثقاب .. لا نظارات مقربة .. بدأت أشتاق لبيتي وزمني . لا غاز ولا شموع .. فقط طبق مليء بالزيت فيه قطعة قماش . هذا هو مصدر الضوء . لا كتب ولا أقلام ولا زجاج في الفتحات التي يسمونها نوافذ . الأسوأ أنه لا توجد قهوة ولا شاي ولا تبغ .. على أن أعيش كروبنسون كروزو الذي وجد نفسه في جزيرة منعزلة .

كانت انباء المعجزة قد انتشرت ، ولم يعد في بريطانيا شخص لا يمشي خمسين ميلاً ليراني . توافد القادمون على البلدة وكان علي أن أريهم نفسي عدة مرات في اليوم . كان هذا مرهقًا لكنه اغاظ الساحر مرلين مما أمتعني كثيرًا . المشكلة الأخرى هي أنهم كانوا ظامئين لرؤية معجزة أخرى .. هذا طبيعي . المرء يحتاج لأن يتفاخر على الجيران . هناك كسوف قمري لكنه ما زال بعيدًا . بعد عامين . كنت على استعداد لأن أدفع مالا كي أعجل به . وعرفت من الوصيف أن مرلين يقول للناس إنني مخادع ولهذا لم أصنع أي معجزة أخرى .

بما تلك من سلطات ألقيت مرلين في السجن ، وأعلنت في البلاد أنني مشغول لمدة اسبوعين .. بعدهما سوف أستمتع بإحراق قلعة مرلين بصواعق من السماء . ولو تكلم أحد عني بسوء فلسوف أمسخه حصانًا .

هكذا صار بوسعي أن أعمل مدة أسبوعين .. صنعت بعض البارود ، واتجهت لقلعة مرلين ورحت مع مساعدي الشاب نضع المسحوق في الفجوات والممرات .. كانت قلعة هائلة لكنها رومانية متداعية . رحنا نعمل ليلاً فنصب البارود ونضع الفتائل قرب الأرض ..

في الليلة رقم 13 غرسنا مانع صواعق ، ومددنا أسلاكًا منه إلى مخازن البارود كلها .. وأرسلت الحجاب في الشوارع ينذرون الناس من الاقتراب من القلعة خلال 24 ساعة . كانت الأيام الأخيرة تشهد الكثير من العواصف الرعدية لكني برغم هذا خشيت أن يتأخر الأمر يومًا أو اثنين .

بالطبع كان نهارًا مشمسا لم تر مثله من زمن !.. هكذا الأمور . رحت أراقب الطقس منعزلاً بينما الوصيف يأتي من حين لآخر ليخبرني أن الناس قلقون مستثارون . فجأة بدأت عاصفة . راحت تقترب ..

طلبت أن يجلبوا مرلين وخرجت إلى المتراس حيث زحام الناس وحيث الملك والملكة يراقبان القلعة . نظرت لمرلين وقلت له بصوت كئيب :

ـ « أنت حاولت حرقي دون أن أؤذيك .. أنا سأحرق قلعتك » .

سمحت له بأن يجرب بعض التعاويذ لإنقاذ القلعة .. رسم دائرة نثر فيها المسحوق فارتجف الناس ورسموا علامة الصليب . كانت العاصفة قد وصلت وراحت المشاعل تنطفئ أو يتراقص لهبها . هنا بلغتنا العاصفة ورأيت أن نجاح خطتي قريب فقلت له :

— « واضح أنك فشلت .. الآن جاء دوري » .

هنا هبط لسان برق على مانع الصواعق فطار البرج في الهواء فوق بركان من نار . ثم تهاوى البرج ومعه القلعة واستحال الليل نهارًا . بينما تهاوى الناس أرضًا من الرعب .

كانت معجزة فعالة .. بدأ الزحام من حولي يتلاشى وعبر الأوحال ظهرت آثار العجلات ..

أراد الملك أن يوقف راتب مرلين .. بل أراد أن ينفيه لكني منعته . طلبت أن تعيد الحكومة بناء القلعة لمرلين من جديد . على أن يبقى يمارس عمله في مهام صغيرة مثل الطقس .

لم يشكرني الساحر قط . لكني لم أتوقع منه أن يكون ظريفًا بعد ما فعلته به .

* * *

الفصل السابع

الرئيس

تحسن وضعي كثيرًا وبدأت أتعايش مع القرن السادس ... كأنني كنت هناك طيلة حياتي . هذا إذن هو بلاط الملك ارثر وليس مستشفى مجانين .

كنت أعيد تأمل الوضع المذهل الذي بلغته . أنا لست ظل الملك . بل الملك هو ظلي . بينما في القرن العشرين لم أكن لأبلغ مرتبة أعلى من مدير مصنع .

كان البلد مثيرًا وناسه من أطيب ما يمكن .. في الواقع كانوا نوعًا من الأرانب لا أكثر . كانوا مخلصين بشدة للملك والكنيسة والنبلاء . كما يحترم العبد السوط أو كما يحترم الكلب الغرباء الذين يركلونه !.. من الغريب أن تتصور الفقاقيع الطافية على السطح التي يعتبرها الناس طبقة نبلاء . وهي طبقة لو تركت لتجني رزقها بنفسها لغرقت في الفقر والجوع والنسيان .

معظم من كانوا في مملكة الملك آرثر كانوا عبيدًا لا يعرفون أنهم كذلك .. كانوا يحسبون أنفسهم بشرًا . كانوا يؤمنون أن عليهم أن يجوعوا ليأكل النبلاء .. يتعروا ليلبس النبلاء .. يحاربوا ليعيش النبلاء .. ولم يعرفوا لأنفسهم حياة أخرى . إن الأفكار الموروثة شيء مثير يثير الاهتمام . لقد نشأ هؤلاء القوم على أن الناس الذين بلا ألقاب مهما علوا من نبل وذكاء

لا قيمة لهم كالحيوانات ، بينما نشأت أنا على أن كثيرين من التافهين يتوارون خلف ألقابهم الطاووسية . كانوا يعاملونني كما نعامل فيلاً في حديقة الحيوان . الكل منبهر بحجمه الضخم وبقوته ، كما أنهم يعرفون أن غضبته عاتية لا ترحم ، لكن هذا لا يكفي كي يعتبروه واحدًا منهم . كنت أنا هذا الفيل . يحترمونني ويخافونني كما يخافون الحيوان . إن هذا نتيجة قرون من سيطرة الكنيسة الرومانية الكاثوليكية التي حولت البشر إلى ديدان .. قبل هذا كان الرجال رجالا تتوقف قيمتهم على ما يحققونه ، فجاءت الكنيسة لتعطي الملك حقه الرباني .. وعلمت البسطاء فضائل الخضوع والفقر وعدم مقاومة الطغيان . هكذا تعلم الرجل العادي أن عليه أن يخضع لوارث الألقاب بل ويفخر بذلك .

أنا هنا عملاق بين الأقزام ، وعقل جبار بين البلهاء ، وبرغم هذا يستطيع أي معتوه يملك لقبًا أن يزعم أنه أفضل مني بوسعه أن يجلس في حضرة الملك بينما لا يحق لي هذا . لم أحب الألقاب ولم أبحث عنها ، لكن لقبًا خرج عفوًا من فم حداد في إحدى القرى ، وانتشر من فم لفم حتى لم يعد لي اسم آخر . هذا الاسم هو (الرئيس) .. لو ترجمناه للغتنا المعاصرة . لا بأس بلقب كهذا . لقد اختارته لي الأمة كلها ..

* * *

كانت هناك دورة منافسة للفروسية ، وجاء الفرسان من كل أرجاء البلاد يستعرضون براعتهم . كنت مشغولاً في طريقة لنقل الحضارة إلى هذا الزمن .. عندما تصل لبلد جديد بكر فأول ما عليك أن تنشأه هو مكتب

لبراءة الاختراعات .. ثم تصنع نظامًا للتعليم .. ثم تصدر جريدة .. للصحافة عيوبها لكنها هي الطريقة التي تبعث أمة ميتة من قبرها .. لا تنس هذا .

حدث خلاف بيني وبين أحد الفرسان ، وهو سير ساجامور .. غضب مني للغاية وقال إن بيننا حسابًا يجب أن نسويه ، واقترح أن نلتقي بعد ثلاثة أو أربعة أعوام وحدد المكان كان ذاهبًا للحروب الصليبية لذا قام بتأجيل المواجهة ، فقلت له إنني سأنتظره ..

كان ذاهبًا في رحلة البحث عن الكأس المقدسة ، وهي عادة لدى كل الشباب هنا .. ليس لدى أي واحد منهم فكرة عن مكانها ، ولا أعتقد أن أحدهم يتوقع أن يجدها فعلاً .. ولو وجدها فلن يعرف ما يفعله بها . في كل عام تذهب حملة للبحث عن الكأس ، ثم تنطلق حملة أخرى بعد عام تبحث عن الحملة الأولى .

* * *



الفصل الثامن

بدايات التحضر

سمع فرسان المائدة المستديرة خبر التحدى فصار حديث الساعة . رأى الملك أن على أن أخوض مغامرات أخرى حتى أتأهب لسير ساجامور بعد أعوام . كنت أنا مشغولاً ببناء عدد من المصانع وتحويل مجموعة من الجهلة إلى صناع مهرة .

قمت بإنشاء مجموعة مدارس أحد ومدارس للحرفيين . وقد أنشأت جوًا من الحرية يسمح لكل من يعتنق أى مذهب مسيحي أن يفعل ما يشاء ، وهكذا انتشرت التجمعات البروتستانتية كان من الممكن أن أجعل الجميع معمدانيين مثلى ، لكن هذا كان يتناقض مع الطبيعة البشرية التى تميل لتنوع العقائد .

مرت أربع سنوات حققت فيها الكثير ، ونقلت لهم الكثير من حضارة القرن التاسع عشر لقد صارت لدى مدارس فى كل مكان ، ومصانع أنشأتها وعلمت عمالها .. فكرت فى أن أعلمهم الضوء لكن كان هذا أقوى من تحملهم .. ثم إننى كنت سأجعل الكنيسة الكاثوليكية تنقض على .

كنت أضيء للعالم شمعة واحدة فى كل مرة ، وكنت مصمما على أن أظل كذلك .

من ضمن الأسرار كان أن أنشأت أكاديمية عسكرية خاصة بى .. (وست بوينت) تخصنى . وقد ظلت سرًا كما ظلت الأكاديمية البحرية التى أنشأتها سرًا اخر . لقد أحدثت تغيرات كثيرة ، لكن حرصت على أن تظل سرية غير زاعقة .

حدث شيء بسيط عطل مشاريعى .. لكنه لم يضايقنى برغم أنه كان يمكن أن يقع فى وقت أفضل . قال لى الملك إن التأجيل الذى طلبته لأربع سنوات قد أوشك على الانتهاء . يجب أن أبحث عن أمجاد حتى يصير لى الشرف فى مبارزة سير ساجامور . ما زال فى حربه من أجل الكأس المقدسة لكن يمكن أن يعود فى أى لحظة .

* * *

لم يكن هناك بلد فيه كل هذا العدد من الكذابين .. كانوا فى كل مكان ، وفى كل يوم كان أحدهم يصل ومعه قصة عن أميرة تريد العون ومن ينقذها من قلعة هى فيها أسيرة . وكان الملك يسأله عن مكان القلعة والطريق لها . كان الكل يبتلع هذه الأكاذيب ولا يوجه أسئلة . فى ذات يوم جاءت واحدة من هؤلاء القوم وحكت قصة مألوفة عن أميرة سجينة فى قلعة ، ومعها 44 حسناء أخرى . سادة القلعة ثلاثة عمالقة أخوة لكل منهم أربع أذرع وعين واحدة .. والعين فى حجم ثمرة الفاكهة . لم يحددوا نوع الفاكهة ..

ثار الفرسان وراح كل منهم يطلب من الملك أن يرسله لمهمة ، لكن من الغريب أن الملك كلفنى بها أنا الذى لم يطلب أى شيء . مقابل نـــابعى

كلارينس الخبر مسرورًا لأن الملك أولانى هذا الشرف ، فشعرت بغيظ عار لكن كـــان على أن أخفيه . قلت إننى سعيد .. بالفعل كنت سعيدًا كـشخص ينزعون فروة رأسه .

طلبت مقابلة الفتاة . كانت على قدر من الجمال ، واسـمها مسـاندى .. وسـألتها :

ــ « تعرفين أننا لا نعرف أى شيء عنك لذا سنكون بطيئين نوعًا . أنـا آسف .. أنت تفهمين .. سوف أسألك بعض الأسئلة فلتجيبى بصدق . أيـن تعيشين ؟ »

ــ « فى أرض المودير يا سيدى » .

ــ « لم أسمع عنها قط .. هل والداك حيان ؟ »

ــ « هذا لا أعرفه يا سيد .. أنا سجينة القلعة منذ زمن سحيق » .

ــ « هل معك أى وثائق تدل على أنك صادقة ؟ »

ــ « ولماذا أحمل ؟ أليس لدى لسان أستطيع أن أحكى به ؟ »

يا للبلاهة .. ألا ترين أنه لا بد من شيء يدعم قصتك هذه ؟..

ــ « أين تقع تلك القلعة التى فيها 45 حسناء سجينة تحت حراسة ثلاثة عمالقة ؟ »

ــ « آه .. إنها ضخمة وتقع فى بلد بعيد .. »

ــ « ما بعدها ؟ »

ــ « لا أعرف يا سيدى .. بعيدة جدًا وكفى » .

ــ « لكن .. فى أى اتجاه هى ؟ »

ــ « ليس لها اتجاه يا سيدى .. الطريق لها يتلوى .. ويلتـف .. هـذه إرادة الله ألا يكون لها اتجاه .. ولو شاء لزالت كل الدروب من على ظهـر الأرض » .

ــ « إنى أنس هذا أيضا .. أنا أناجى نفسى فقـط . هـذه عادة سـيئة لدى .. عادة قديمة . لنقل إن هذا نتيجة عسر الهضم .. لكن لا تقولى إنه ليست معك خارطة للمكان » .

قالت :

ــ « خارطة ؟ هل تقصد ذلك الشيء الذى يصطادونه مـن المحـيط ، ويطبخونه مع الزيت والبصل و ... »

ــ « هل لم تسمعى عن لفظة خارطة من قبل ؟ لكن . لـن أشـرح . لا أحب الشرح لأنه يعقد الأمور .. خذها للباب يا كلارينس » .

كان من الصعب أن تنتزع منها حقائق أكثر إلا بالديناميت . كانت جحشًا حقيقيًا برغم هذا أصغى لها الملك وحاشيته باحترام كأنها صـفحة مـن الإنجيل . لقد رحبوا بها كما يرحب الحانوتى بجثة .

عاد لى كلارينس ، وكنت مغتاظًا لأن الفتاة لم تعطنى دليلاً واحدًا علـى مكان القلعة ، لكنه كان مندهشًا لأننى مصر على معرفة هـذه الحقـائق .. وقال :

— « إنها ستذهب معك يا سيدى .. هذه هى العادة » .

— « تذهب معى ؟ هراء » .

— « لكنها الحقيقة .. »

— « وتركب معى وتبيت الليل معى ؟ هذه فضيحة » .

لم يعد هناك كلام سوى عن مغامرتى القادمة . والطريقة التى سأهزم بها العمالقة . كانوا أطفالا طيبين .. مجرد أطفال . علمونى الكثير من التعاويذ السحرية وأعطونى أعشابا أضعها فوق جروحى . لقد نسوا أننى ساحر عظيم يمكن أن أواجه التنين أو شياطين الجحيم .

كنت سأنطلق عند الفجر . لكنى قضيت وقتا لعينا وأنا أحاول ارتداء الدروع .. عملية معقدة جدا وكلها تفاصيل . تلبس عدة طبقات من الحديد ، وفى النهاية .. هذا ليس وقتا مناسبا للرقص !.. الرجل المدرع كهذا هو بندقة لا تستحق تحطيمها .. هناك لحم قليل جدا بالنسبة للقشرة ..

ساعدنى الصبية على ارتداء الشىء ، وإلا لما استطعت .

كانت الشمس قد ارتفعت وقد جاء الملك والبلاط ليرونى . فى ثياب كهذه لا تركب بنفسك بل يحملونك حملا كأنهم يحملون مريضا لعيادة طبيب . يثبتون قدميك فى الركاب وأنت تشعر بأنك شخص آخر يعطوننى الرمح ويعلقون الدرع فى رقبتى كأننى سفينة تستعد لتبحر فى البحر .

لم يبق سوى أن تجلس الآنسة خلفى على سرج إضافى . كان اسمها ساندى كما قلت .

وانطلق الفرس .. الكل ينظر فى رهبة ما عدا الأطفال .. الأطفال هم الأطفال فى كل مكان ، وهم لا يحترمون أحدا مهما كان .. لا أستطيع أن أترجل لعقابهم لأننى لن أستطيع الركوب مرة أخرى . وأنا أمقت البلدان التى لا تملك رافعة !

* * *

الفصل التاسع

تعذيب بطيء

انطلقنا مع أول أنسام الفجر . رأينا الوديان الخضر تمتد تحتنا ، بينما الأنهار تجرى بينها . ومن بعيد نرى موجات فضية تتعالى نحو الأفق هي في الحقيقة قلعة . نحلم في الضوء الأخضر الذى جاء من شعاع الشمس الذى تخلل الأوراق الخضر .

مع بداية اليوم ارتفعت حرارة الجو وولى الشعور بالراحة . مشينا مساحة شاسعة بلا رقعة ظل . هناك مضايقات غريبة لم تخطر بذهنك قط . في أول عشرة أميال شعرت بحاجة لاستعمال المنديل ولم يكن في جيبي واحد .. الآن صار هذا هاجسا ملحًا مستمرًا .. لا مفر منه .. فقدت أعصابي ودعوت أن يشنق الرجل الذى يصنع درعا لا جيوب فيه . المنديل في خوذتي لكنها خوذة لا يمكن أن تنزعها بنفسك . الشيء الذى لا تستطيع الوصول له هو الشيء الذى تريده بشدة ..

العرق المالح يسيل على عينى ولا أستطيع بلوغ المنديل . يبدو الكلام سهلاً على الورق لكنه عذاب حقيقى . لقد كنا نعبر مساحات غبار كبيرة وكان هذا يتطاير لأنفى فأدمع وأعطس .

لم نلق أى واحد في بريطانيا المقفرة هذه . لم نلق حتى الغيلان ، وكنت أتمنى أن أجد غولاً معه منديل .. الثياب تسخن بلا توقف مع

الشمس وتتقطع مع كل حركة . كأنى أشوى في فرن . تعرق بلا توقف .. هكذا تأتى اللحظة التى تشعر فيها بالحكاك وترغب في الهرش !!

تسللت ذبابة عبر القضبان الموضوعة على وجهى . فهززت رأسي . لكنك تعرف كيف تتصرف الذبابة .. راحت تطير من فتحة أنف لأخرى وهى تلز ..

هنا نفد صبرى فطلبت من الفتاة أن تنزع عنى الخوذة وتهزها . ثم ملأتها بالماء وسكبت بعضه داخل الدروع . ولا يمكن أن أصف مدى انتعاشى وقتها ..

بعد الراحة تنبهت لحقيقة أننى لا أستطيع صعود صهوة الحصان .. الفتاة لا تستطيع مساعدتى ، وعلى أن أنتظر مساعدة . كانت كائنًا لطيفًا مطيعًا لكنها ثرثارة جدًا لدرجة أنك تشعر بمخك يتورم . لو كانت هناك سدادة فلين معها لكانت مريحة . لا تتعب أبدًا ولا يجف نبع كلامها لحظة أو يمسسها لغوب .

كنت أقول لها :

– « استريحى أيتها الطفلة .. أنت تستعملين كل الهواء بحيث سوف تضطر المملكة لاستيراد المزيد غدًا .. والميزانية عاجزة أصلاً »

* * *

كنت سعيدًا جدًا بهذه الراحة ، لكن ضايقنى أننى لا أستطيع إشعال غليونى . كنت أملك مصنع ثقاب من قبل لكني لم أحضر ثقابا معى . ثم إننى كنت جائعًا .

الفرسان المدرعون مطمئنون دوما إلى أنهم سيجدون طعامًا ولا يخطر ببال أحدهم أن يعلق كيس شطائر فى الرمح . فرسان المائدة المستديرة يفضلون الموت على أن يشاهد أحدهم بشىء كهذا .

جاء الليل فكان على أن أمضيه داخل الدرع .. وبدأ المطر يهطل وهكذا بدأت الحشرات تفر من المطر لتتسلل لدروعى ! كنت أتساءل طيلة الليل : كيف يتحمل هؤلاء القوم الدروع ؟ كيف ظلوا بها كل هذه القرون وناموا بها ؟

جاء الصباح وأنا نعسان منهك . جائع .. أرغب فى حمام . هى كانت منتعشة لأنها نامت كجثة طيلة الليل ، أما عن الحمام فلا أحسبها جربته فى حياتها ، لذا لم تفتقده .

مررنا بمجموعة من الفلاحين اليائسين الذين يعملون فى تمهيد أحد الطرق ، بالسخرة لسيد المقاطعة . هؤلاء من يقال عنهم أنهم (قوم أحرار) والحقيقة أنهم لا يستطيعون مغادرة المقاطعة ، أو طحن الحبوب إلا فى مطحنة السيد ، ولا يبيعون أملاكهم إلا بعد دفع ضريبة للسيد .. وقد طلبنا منهم بعض الطعام فرحبوا بذلك .

دفعت ثلاثة بنسات مقابل إفطارى .. والحقيقة أن المرء كان بوسعه أن يطعم دستة رجال بهذا السعر فى ذلك الزمن . ليكن .. أنا مبذر بطبعى .. ثم إن هذا المال سيفيدهم أكثر بكثير من فائدته فى خوذتى .

ساعدونى على ركوب الحصان من جديد . أشعلت الغليون ونفثت سحابة دخان عبر قضبان الخوذة ففر الجميع رعبا . فقد حسبونى تنينًا يخرج الدخان من فمه .

انطلقنا فى رحلتنا ، وكنت قد بدأت أنعس بينما نحن نجتاز مرجًا ..

فجأة رأينا قلعة على مرتفع . لها منظر مهيب ولها أبراج رمادية يلتف حولها نبات اللبلاب . كانت أكبر قلعة رأيناها . وخطر لى أنها القلعة المقصودة ، لكن ساندى قالت إن لا . لا نعرف من مالكها وقد مرت بها أثناء ذهابها إلى كاملوت .

* * *

الفصل العاشر

مورجان لى فاى

معظم ما يقوله الفرسان الجوالون خرافات ، ويمكنك أن تتوقع أن 97% من كلامهم كذب .. الباقى حقيقى . لكن برغم هذا أحترم قولهم إن معظم القلاع أماكن غير مريحة يجب أن تعرف شيئاً عن صاحب القلعة قبل أن تدق على الباب لذا سررت حين رأيت عن بعد فارساً يتجه نحو القلعة

كان يلبس خوذة مزخرفة بالريش . لاحظت أنه يحمل لافتة على شكل ساندوتش كتب عليها :

— « صابون برسيمون .. كل الحسناوات يستعملنه » .

كانت هذه فكرتى . الطريقة التى اقترحتها لجلب التقدم والحضارة لهذا الزمن . هكذا زودت مجموعة فرسان بإعلانات تشبه الساندوتش .. كانت هذه فكرتى نحو التقدم والحرية والتخلص من سلطة الكنيسة الكاسحة وقد طلبت من هؤلاء المعلنين أن يمشوا فى كل مكان وينطقوا للناس معنى المكتوب على اللافتات . ثم إن المعلن يبدأ فى إقناع الناس بأهمية ما يعلن عنه .. يجرب الصابون على كلب أولاً . ثم يجربه على نفسه .. فإذا ظل الناس متشككين قام بتجربته على ناسك . إن الغابة تعج بهم ..

ظهر أثر الدعاية بسرعة .. كان مصنع الصابون يعمل بعاملين ، فصار يحتاج إلى خمسة عشر عاملاً . كان اسم الفارس المعلن هو (لا كوت ميل تيل) ، وقد كان عاثر الحظ فى بيع الصابون ، لدرجة أنه غسل ناسكاً بالصابون لكن الناسك مات . قال لى إن القلعة تخص مورجان لى فاى أخت الملك آرثر .. زوجة الملك يورينز . إن لها مملكة صغيرة يمكنك أن تقف فيها وتقذف الطوب على المملكة المجاورة . الممالك هنا كثيرة جداً لدرجة أنك تنام وقد ثنيت ركبتيك لأنك كى تفردها تحتاج لجواز سفر .

رحل الفارس وبعد قليل ظهر لنا حراس القلعة وسمحوا لنا بالدخول بعد مفاوضات . زيارتى كانت مخيبة للأمل لكنى كنت قد سمعت عن (مورجان لى فاى) فلم أتوقع الكثير . كانت شريرة جداً وقد أقنعت الناس أنها ساحرة عظيمة . إن لقاءها ممتع كلقاء الشيطان نفسه . لكنى اندهشت لأنى وجدتها جميلة لم يجعد الشر بشرتها .. يمكنك أن تحسبها أختاً لابنها ..

دعينا لمقابلتها . وكان زوجها هناك .. كما كان ابنها موجوداً ، وقد أثار فضولى لأن ساندى صدعتني بقصته التى قهر فيها ثلاثين فارساً .. راحت مورجان توجه لى الأسئلة فى تهذيب صوتها عذب كتغريد البلابل وخطر لى أن هذه المرأة ضحية الأقاويل والأكاذيب

جاء تابع وسيم يحمل لها رسالة . تعثر من الارتباك وهو يقف جوارها ، فما كان منها إلا أن أخرجت خنجراً وغرسته فى قلبه كأنه فأر . قال الملك لفظة . « أوه . » متعاطفة .. لكن الملكة رمقته بنظرة نارية جعلته

يتوقف فوراً . جاء بعض الخدم يأخذون الجثة بينما عادت الملكة تتكلم بلطف . ولاحظت أنها سيدة بيت بارعة لأنها كانت تراقب الخدم وكيف يتخلصون من الجثة وينظفون الأرض بالمناشف .

وأدركت أن الملك المسكين في حالة رعب دائمة .. يكفي أن تنظر له لتلن .

كنت أتكلم فاطريت الملك أرثر .. ونسيت أن هذه السيدة تكره أخاها بجنون ، فرأيتها تنادي الخدم وتأمرهم :

— « خذوا هذين الحقيرين للزنازين » .

كانت زنازين هذا القصر ذات سمعة ممتازة ، ولم أجد ما أقول .. لكن حين وضع الحارس يده على ساعدي صاحت :

— « قاتلك الله !... كيف تجرؤ ؟ هذا هو الرئيس !!! »

كانت فكرة طيبة لأن الملكة غيرت طريقتها على الفور .. وقالت :

— « سمعت عن براعتك مع الساحر مرلين . أعرف أن بوسعك أن تحيل حراسي وقصري إلى رماد ، ولهذا أردت أن أدفعك لأن تظهر مواهبك .. هذا نوع من الفضول الطفولي » .

أصيب الحراس بالرعب فخرجوا بمجرد أن سمح لهم ..

* * *

كانت الملكة راغبة بشدة في أن أريها مواهبي وأقتل شخصاً .

لكنها قوطعت عندما دعوها لوقت الصلاة . يجب أن أعترف أن هؤلاء القوم متدينون مهما بلغ بهم من توحش وطغيان .. فيما بعد رأيت أكثر من نبيل يتوقف ليصلي قبل أن يذبح عدوه .. يجب أن أعترف بهذا برغم أنني لا أحمل غراماً مفقوداً للكنيسة الكاثوليكية ..

بعد الصلاة جاءت مأدبة تضيئها مشاعل من الشحم . وكل شيء كان فاخراً جديراً بالملوك .. العدد كان متواضعا هو 180 شخصا تم ترتيبهم حسب طبقتهم الاجتماعية وكانت هناك فرقة موسيقية بدائية تعزف الموسيقا .

تلا القس صلاة مائدة لاتينية طويلة . ثم انطلق الخدم والسقاة يحملون أطباق المأدبة . تعالى صوت المضغ ساعة ونصف الساعة وتلاشى الطعام . ثم بدأ الشرب جالوناً تلو الآخر . بدأ المرح وتعالت أصوات النكات .. وعند منتصف الليل كانوا ثملين جميعا . بعضهم يبكي وبعضهم يضحك وبعضهم فقد وعيه تحت المائدة ..

هنا ظهرت امرأة شائبة الشعر تستند إلى عكاز ، وكانت تقف عند نهاية القاعة .. صاحت في الملكة :

— « عليك غضب الرب ولعنته يا امرأة .. يا من قتلت حفيدي الوحيد وجعلتني في العالم بلا أهل ولا صديق » .

رسم الكل علامة الصليب ، لكن الملكة نهضت ولهيب الموت في عينيها وأشارت للخدم :

ــ « خذوها إلى المحرقة ! »

نفذ الحراس الأمر وقبضوا على العجوز .. كان المشهد قاسيًا .

نهضت ساندي وقالت للملكة في حماسة :

ــ « الرئيس يقول لك إن هذا لن يكون وإلا سيمحق هذه القلعة بمن فيها ... »

لم تقاوم الملكة وعادت لمقعدها ، وفي هذه اللحظة أفاق الجميع وتدافعوا للخروج من القاعة قبل أن أغير رأيي وأمحقها فعلاً .

سمعنا صوت صراخ مريع قادما من القبو ، فارتعدت .. لكنها قالت لي ضاحكة :

ــ « هذه روح عنيدة تأبى الاعتراف !! »

سألتها مذعورًا عما يحدث ، فقالت لي إنه فلاح متهم بأنه قتل وعلا في أرضها . وهي تحاول إرغامه على الاعتراف .. قلت لها :

ــ « ليست هذه طريقة مناسبة .. يجب أن تجعلي للمتهم ومن أبلغ عنه يتواجهان » .

قالت :

ــ « مستحيل أن يتواجها . فالذي أبلغ عن قتل الوعل جاء متخفيا في الليل وأخبر الحراس ثم فر » .

ــ « إذن شهادة هذا المجهول هي الدليل الوحيد على قتل الوعل ؟.. ألا يمكن أن يكون هو قاتل الوعل ؟.. لكن ما فائدة تعذيب السجين إذن ؟ »

ــ « لن يعترف بطريقة أخرى .. وهذه الطريقة الوحيدة لننقذ روحه .. لن يموت دون اعتراف » .

ــ « وماذا لو لم يكن لديه ما يعترف به ؟ »

عناد رهيب ..

دخلنا قاعة التعذيب فرأيت عملاقًا شابًا من الفلاحين تم ربط أطرافه وقد تناثر العرق على جبينه .. جواره يقف الجلاد والحراس وعند قدميه امرأة شابة باكية ، وطفل على حجرها ... شد الجلاد الحبال شدة فصرخ السجين وصرخت المرأة في صوت واحد . طلبت بحزم من الملكة أن أتكلم مع السجين منفردًا .. ليس لها أن تعارضني فأنا أمثل الملك أرثر هنا .. .

كانت متضايقة لكنها رضخت لسلطتي ..

أرغمت الحراس على فك السجين وأرقدناه وقدمنا له بعض الخمر كانت المرأة في حيرة ورعب فطلبت منها أن تربت على الرجل . نظرت لي في امتنان كحيوان قدمت له معروفًا لا يفهم ما هو . وسالت دموعها .

وعدت الرجل بأن يخرج من هنا رجلاً حرًا .. ثم سألت الرجل .

ــ « ما هي قصتك بالضبط ؟ أعرف الناحية الأخرى من القصة فماذا عن ناحيتك ؟ يمكنني أن أوقن أنك إذ لم تتكلم بعد هذا العذاب لم تفعل شيئًا فعلاً » .

قال الرجل :

— « بل أنا من قتل الوعل يا سيدي ! »

— « ما معنى هذا ؟ »

صاحت المرأة :

— « أنا طلبت منه أن يعترف يا سيدي ، ليظفر بميتة سريعة . الصمت سيجعله يموت ببطء ويتعذب » .

هنا فهمت .. لو أدانوه فلسوف يأخذون أملاكه ويطردون أسرته . لكن لو عذبوه حتى الموت دون أن يتكلم فلا يستطيع أحد أن يسلب أسرته حقها . المرأة تفضل أن يظفر زوجها بميتة سريعة على أن تحتفظ بالمسكن .. تذهلني حقًا قدرة النساء المذهلة على التضحية عندما يقتضي الأمر . وتذهلني أكثر القيمة المتدنية لغير النبلاء في هذا الزمن من حق النبيل أن يقتل من يريد فلا يحاسب إلا لو قتل نبيلاً آخر .

كانت ورقتي الأخيرة هي أن طلبت من الملكة أن أرى مجموعتها من السجناء ، لأنني أشيد سجونًا جديدة في كاميلوت .. ترددت قليلا كما توقعت ثم امتثلت كما توقعت أيضا .

نزلنا إلى السراديب المظلمة العفنة حيث كان المساجين .. من ضمن البؤساء الذين رأيتهم كانت امرأة لا تقدر على فتح عينيها إذ رأت الضوء ، بعدما صار الظلام عالمها .. كانت ترتدي بعض الخرق ، ويبدو أنها دخلت

السجن في الثامنة عشرة وظلت هناك تسع سنوات . لقد كان أحد النبلاء يريد أن ينام معها قبل زوجها طبقًا للقانون هنا ، وقد حاول زوجها الشاب أن يدافع عنها . كانت النهاية ان ألقى بها وزوجها هنا في هذا الباستيل . تسع سنوات في الظلام ولا يعرف احدهما إن كان الآخر حيًا أم لا .

رأيت الزوج الذي تحول لهيكل عظمي استطالت لحيته وامتلأ جلده بالندوب ، وأمرت بأن يجلبوه إلى زوجته .. توقعنا أن مرآها سيعيد له الدم ، لكن كان الأمر مخيبًا للأمل . لقد جلسا يتبادلان نظرات غائمة فيها فضول حيواني . ثم عاد كلاهما يحلق في عالم الأحلام .

أطلقت سراح 47 سجينا من جحور الفئران هذه .. لم أترك في السجن سوى أحد النبلاء الذي اتهموه بذبح نبيل آخر . رباه !.. ما أتفه أسباب سجن هؤلاء القوم . معظمهم ألقي به في السجن بلا ذنب ، ودون أن تغضب عليه الملكة بل هي تجامل صديقًا . بين المساجين هناك خمسة لا يذكر أحد أسماءهم ولا جرائمهم !.. وهم كذلك لا يذكرون . أربعة رجال وامرأة . لم ير أحدهم ضوء الشمس منذ 35 عامًا . الملكة كانت قد ورثتهم من صاحب القصر السابق ..

سألت الملكة :

— « إذن لماذا لم تطلقي سراحهم ؟ »

أدهشها السؤال فهو لم يخطر ببالها قط .. هـؤلاء كـانوا نوعًـا مـن العقارات .. الأملاك .. عندما نرث أملاكًا فنحن لا نتخلى عنها حتى لو لـم نكن نريدها .

عندما خرجت الوطاويط للنور وجدت أنهم هياكل عظميـة والفزاعـات وتمنيت لو التقطت صورة لهم .

* * *

الفصـل الحـادى عشر

قلعـة الغيـلان

قطعنا تسعة أميال ، هو رقم مدهش بالنسبة لحصان يحمل ثلاثة . رجلاً وفتاة ودرعا . فجلسنا نستريح تحت بعض الأشجار جوار غدير رائـق . من بعيد اقترب فارس يبدو أنه لا يكف عن الشكوى ، لكننـى سررت إذ رأيته لأنه يحمل لافتة كتب عليها أحد إعلاناتى :

استعمل فرشاة أسنان بيترسون الواقية :

عرفت على الفور أنه سير مردوك دى لا مونتين . كنـت أحبـه لأنـه مخلص شجاع وكان منظره محببًا بكتفيه العريضتين وشعر رأسه الشبيه بلبدة الأسد .

كان غاضبا يطلق السباب لأنه يبحث عن خصمه سير (أوسيس) ليصفى حسابه معه . لن يترجل عن جواده ولن يستريح إلـى أن يجده . وعلى بعد أميال رأينا بطريركًا ممن أطلقت سراحهم من السجن أمس .. بصعوبة يرى من حوله أو يدرك أين هو بعد نصف قرن من البقاء فى حفرة مظلمة كالفئران . أقاربه يذكرون شبابه عندما قتل طفله الرضيع وناوله لأمه ثم انطلق لمصيره . كان أقاربه يحيطون به فرأيت فيهم مدى

ما يمكن للمرء أن يبلغه من عبودية وصبر واستسلام . خيالهم قد مات .. وهذه أحط درجة أعرفها في البشر .. معنى هذا أنهم بلغوا القاع ..

المشكلة أن التاريخ يعلمنا أن الثورات الناجحة فقط هي التي تبدأ بالدم . هؤلاء القوم لن يثوروا إلا لو أهديتهم مقصلة ، وبالتالي أنا لا أصلح لهم .

قالت ساندي إننا نقترب جدًا من قلعة الغول .

لقد نسيت تمامًا سبب هذه الرحلة .. عندما ذكرتها توترت وبدا لي الخطر حقيقيًا ودانيًا . كانت حماستها تتزايد ومعدية ، مما جعل قلبي يدق بلا توقف . رأيتها تترجل ثم تزحف وسط مجموعة من الأشجار فترجلت خلفها .

كانت عيناها حارقتين وهي تشير بإصبعها وتهمس لاهثة .

— « القلعة !.. القلعة !.. هذه هي » .

قلت في خيبة أمل :

— « هذه حظيرة خنازير . لا أكثر .. حولها سور » .

قالت في ذهول :

— « هي مسحورة من زمن . بالنسبة للبعض يرونها في شكل مختلف ، أما للبعض الآخر فيرونها كما هي .. فليسامحنا الله .. كم تؤلمني رؤية هذه الوجوه الأسيرة التعسة والدموع في عيونها » .

قلت في غيظ :

— « هذا شيء معتاد .. أن تسحري شيئا في عين البعض ولا تسحريه في عين البعض الآخر .. إذن هاته السيدات مسحورات كخنازير .. أنت ترينهن كنساء . إذن لا مشكلة .. أنا الوحيد الذي يراهن خنازير وهذه ليست مشكلة .. سوف أعاملهن كسيدات » .

ثم سألتها :

— « وهؤلاء الرعاة الثلاثة ؟ هل هم مسحورون كذلك ؟ »

قالت :

— « الغيلان ؟.. هل تغيروا في عينك كذلك ؟.. ما أقوى هذا السحر يا سيدي ! »

تركت ساندي واقفة كالموتى .. وانطلقت نحو حظيرة الخنازير .. حييت الرعاة ثم أجريت صفقة بأن اشتريت منهم القطيع كله مقابل 16 بنسًا .. هذا وقت مناسب قبل أن يأتي الإقطاعي غدا ليأخذ نصف الخنازير فتصير ساندي بلا أميرة ..

قال لي أحد الرعاة (وهو أب لعشرة أطفال) أن الجابي جاء العام الماضي ليأخذ خنزيرًا فعرضت زوجة الراعي عليه أن يأخذ طفلاً بدل الخنزير ، ما دامت لن تتمكن من تربيته ..

فتحت الحظيرة وطلبت من ساندي أن تتبعني ..

كانت دموع الفرحة تسيل من عينيها .. وراحت تقبل الخنازير وتداعبها . شعرت بالعار منها ، شعرت بالعار من الجنس البشري كله .

أمامنا عشرة أميال نقود فيه هذا القطيع للبيت . لا يمكن أن نعامل بغلظة هاته السيدات لأن ساندى لن تسمح بذلك . كان على كذلك أن أنادى كل خنزير بجلالتكم أو سعادتكم ..

هناك أميرة شقية راحت تجرى هنا وهناك .. قبضت على ذيلها فى النهاية وعدت بها وهى تصرخ .. كانت معنا مس أنجيلا بوهون والآنسة إلين كورتميز .. وما تبدوان لى كخنزيرين أسودين .. الأولى لها نجمة بيضاء فى جبهتها . علينا أن نحافظ على لحم السجق هذا .

بالطبع لم أر فى حياتى مشهدا كهذا . ولا سمعت شيئا كهذا . ولا شممت شيئا كهذا ..

قضينا ليلتنا عند أحد الإقطاعيين الذى قبل أن يستضيفنا .

* * *

الفصل الثانى عشر

الحجاج

كنت فى غاية الإرهاق عندما أخلدت للنوم فى النهاية . ما أمتع استرخاء العضلات بعد هذا كله ! لكنى لم أستطع النوم .. كانت الضوضاء تضايقنى ، ورحت أفكر فى ساندى .. كانت فتاة عاقلة بالقدر الذى تستطيع هذه المملكة أن توجده . أحيانًا كنت أشعر أنها مجنونة .. من السهل جدًّا أن تعتبر الشخص الذى لم ينل تعليمك مجنونًا . كان السحر عندها هو الجواب عن كل شيء ، فلو حكيت لها عن عربة تسير بلا خيول أو رجل يحلق فوق السحب فى منطاد ، فلن تندهش .. إنها تعرف هذا كله .. إنه السحر ..

وقت العشاء جاءت ساندى بالخنازير وراحت تطعمها فى رفق وهى تنادى كل خنزير باسمه . لم أستطع الأكل فى وجود خنازير .

سألت ساندى عن أسرتها . فقالت :

ـ « ليست لى أسرة .. لم تسأل ؟ »

ـ « وهذا البيت .. ألا تقيمين هنا ؟ »

ـ « ليس لى بيت » .

قلت لها :

— « أما وقد انتهت مهمتنا بنجاح فسوف أعود للوطن لأقدم تقريرى » .

قالت :

— « أنا كذلك ليس لى شيء هنا » .

— « ولماذا ؟ »

— « أنا لا أتخلى عن فارسى أبدا .. سأظل معك حتى يقتلك فارس آخر ويفوز بى » .

تنهدت وقلت لها أن نتحرك .

بدأنا الوداع .. واقترحت على خدم القلعة أن ينتهزوا الفرصة لينفضوا الغبار المتراكم على كل شيء .. لكنهم قالوا إن فى هذا خرقًا للمعتاد .. هذه أمة مستعدة لأى جريمة ما عدا خرق المعتاد .

انطلقنا فى طريقنا . كان أول ما قابلناه موكبًا من الحجاج .. لم يكن الموكب فى طريقنا لكنا انضممنا له . كنت قد قررت أنه لو أردت حكم هذا العالم فعلى أن أندمج فيه أكثر .

كان هذا الحشد من الناس سعيدًا مفعمًا بالحياة والتهذيب .

كانت ساندى تعرف مقصد رحلة الحج هذه وقالت لى :

— « هذه رحلة للوادى المقدس .. حيث يباركهم النساك ويشربون من الماء السحرى الذى يزيل عنهم خطاياهم » .

— « وأين مصدر الماء هذا ؟ »

— « على بعد رحلة يومين . على حدود مملكة الوقواق .. هناك مجموعة نساك لا يتبادلون الكلام مع بعض . لا يأكلون تقريبًا .. لا يستحمون .. يصلون طيلة اليوم . يظلون بثوب واحد طيلة العمر إلى أن يتحلل كان الماء شحيحًا هناك حتى صلى كبيرهم فتدفق الماء فى الصحراء . استحم الرهبان فى الماء فصاروا بيضًا كالثلج .. هكذا أغضبوا كبيرهم الذى منعهم من الاستحمام . فجف الماء من جديد .. وذهبت كل صلواتهم وقرابينهم هباء » .

— « غريب أن يكتشف المرء أن هناك كسادًا فى هذه التجارة .. أكملى » .

— « قام كبيرهم بإعادة الينبوع للتدفق .. ومن حينها لا يستحم فيه أحد أبدًا .. جاء من كل حدب هؤلاء الذين سمعوا عن المعجزة .. وكبر الدير وجاءت راهبات وأنشأن دير راهبات كبيرًا .. »

عند العصر قابلنا موكبًا آخر لكنه خال من السعادة . لا نكات ولا ضحك .. كان مكونًا من رجال ونساء أطفال وشيوخ .. حتى الرضع كانوا لا يبتسمون كل الوجوه يبدو عليها القنوط . كانوا عبيدًا كما هو باد من السلاسل التى ربطوا بها وكانت هناك سلسلة عملاقة تربط الأعناق كلها ما عدا الأطفال .

لقد مشوا على أقدامهم 300 ميل وأكلوا أقل الطعام وكانت القيود قد ملأت جلدهم بالجروح المتقيحة . كانوا فى البداية مئة لكن بيع نصفهم فى

الطريق ، والنخاس يتقدم الموكب على حصانه ملوحًا بسوط فيه عقد صغيرة فى نهايته ..

كل الوجوه كانت رمادية يكسوها الغبار .. يمكنك أن تكتب فوقها بإصبعك . هناك على الوجه شكل واضح يمكن قراءته بسهولة : هو مجرى الدموع ..

من حين لآخر يهوى السوط على كتف امرأة فيمزقه ...

أبدى الحجاج إعجابهم ببراعة الرجل فى الضرب بالسوط . لقد اعتادوا هذه المشاهد حتى لم يعودوا يهتمون بها . يرون أن هذا شيء معتاد فى الحياة .

تمنيت أن أحررهم لكن هذا لا يصلح .. لا أريد أن أشتهر بمحاربتى لكل قوانين المملكة والتمرد . يومًا ما سوف أقضى على نظام الرق لكن ليس الآن .

قضينا ليلتنا فى حانة بقرية . فى الصباح جاء فارس يبلغنا بمصيبة . لقد جف الينبوع مرة أخرى تساءل الحجاج فى ذعر :

ـ « هل هناك من استحم مرة أخرى ؟ »

ـ « لا نعرف .. نشك فى ذلك .. لا بد أنها خطيئة أخرى » .

ـ وكيف يشعرون ؟ »

ـ « لا يمكن وصف ما يحسون . لقد جفت البئر منذ تسعة أيام . كلهم يصلون ويبتهلون .. فى النهاية طلبوا أن تذهب إليهم يا سيدى لتجرب سحرك . إن الساحر مرلين هناك وقد قال إنه سيعيد الماء ، لكنه يجرب منذ ثلاثة أيام بلا جدوى . لم يحصل على كمية ماء تعادل العرق الذى يسيل منه أثناء المحاولة » .

كان الإفطار معدًا فأفطرنا ، فتناولت قبعة الفارس وكتبت داخلها :

أرسل اثنين من المقدار الأول . واثنين من الثانى وستًا من الرابع .. مع بعض الأشياء .

وقلت له :

ـ « اذهب لكاميلوت بسرعة أيها الفارس الشجاع .. واعرض المكتوب على خادمى كلارينس . قل له أن يجلب هذه المواد للوادى المقدس بأقصى سرعة » .

ـ « سأفعل أيها الرئيس » .

وانطلق مسرعًا ..

* * *

الفصل الثالث عشر

النافورة المقدسة

لم يتصرف الحجاج بتعقل كما يفعل الأرنب أو الغراب أو الدودة في ظروف مماثلة .. أي أنهم لم يعودوا أدراجهم . كانوا مشتاقين لرؤية النافورة المقدسة .. فلما عرفوا أنها جفت والمعجزة زالت ازدادوا حماسة لرؤية المكان . لا يمكن فهم البشر فعلاً .

استمرت المسيرة نحو صوت دقات جرس يدوي من بعيد . كان هذا ديرًا بلغناه قبل الظلام . قدموا لنا المسكن وأرسلوا النساء ليبتن في دير الراهبات . كانت الأجراس تدق في آذاننا مباشرة الآن .. بينما الرهبان يروحون ويجيئون في كآبة .

كانت فرحة رئيس الدير المسن عظيمة بلقائي ، وأدمعت عيناه وهو يقول :

ـ « لا تتأخر يا بني .. أعد لنا الماء بسرعة . لقد حل بنا الخراب وضاع عمل مائتي عام .. هذا هو سحر الشيطان » .

قلت له :

ـ « سوف أستعمل أدوات خلقها الله .. لكن هل يعمل الساحر مرلين بأدوات يقرها الدين ؟ »

ـ « آه .. وعد بذلك يا بني ... وعد بذلك .. ألن تساعده ؟ »

ـ « لا أؤمن بخلط الأساليب يا أبت . ثم إنه تولى المقاولة وليس من حقي لمس العمل إلى أن يعلن فشله » .

قال رئيس الدير :

ـ « سوف آخذ المقاولة منه الأمر بالغ الخطورة ، ثم إن الكنيسة لا تبالي بالقانون .. الكنيسة هي القانون »

قلت له :

ـ « لا تجبره على شيء وإلا وضع تعاويذ سحرية تعطل عملي شهرًا ... هل تريد أن نتعطل شهرًا ؟ »

كان وجودي قد أفشى جوًا من التفاؤل في الدير ، حتى إن الرهبان أكلوا وجبة طيبة لأول مرة هذه الليلة ، وارتفعت معنوياتهم . حكينا حكايات مؤثرة عتيقة ، واهتزت الكروش بالضحك حكيت لهم قصة مضحكة فلم يفهموها .. حكيتها خمس مرات فبدءوا يضحكون .. حكيتها خمس عشرة مرة فانفجروا في الضحك وتحولوا لغبار كنسته بالمكنسة ..

ذهبت للينبوع في اليوم الثاني فوجدت الساحر مرلين يجرب ويطلق السباب . كان الأمر كما توقعته .. هذه النافورة بئر عادية تم حفرها ولا معجزات تحيط بها . يمكنني أن أحكي أكاذيب مماثلة عنها ويدي مربوطة خلف ظهري .

كانت البئر فى الصخر . وقد أحاطت بها المشاعل .. وكان الماء يؤخذ منها بدلاء يسحبها الرهبان ليتدفق فى الخارج عبر مجار صخرية . لو أن مرلين نزل للبئر واستعمل عينيه لاستطاع تحديد السبب الفيزيائى بسهولة .

خطر لى أن البئر يتسرب منه الماء .. هناك صخور فى القاع سقطت وشرخت فتكونت بينها شقوق . وهكذا هرب الماء . وتأكدت من هذا عندما تدليت فى البئر وفحصت الجدران على ضوء شمعة .

صعدت للسطح فاستدرت للرهبان خطر لى أن هناك من فعل ذلك مثلى عندما جفت البئر أول مرة . هناك من تدلى ورأى الشرخ وسده ثم خرج ليقول لكبير الرهبان إن البئر لن تجلب الماء ما لم يعاقب من استحموا فيها .

أقنعت الرهبان أن العملية صعبة جدًا .. إن الدعاية الذكية يمكنها أن تحول شيئًا تافهًا لشىء مهم .

كنت عائدًا لبيتى عندما قابلت ساندى . كنت قد بدأت أحمل إعجابا خاصًا بهذه الفتاة .. برغم جهلها فقد أدركت أنه من الصعب مقارنة معلومات فتاة من القرن السادس بتقنى من القرن التاسع عشر ثم إننى كنت منبهرًا بلغتها التى هى أم اللغة الألمانية ..

كانت رحلتنا بين النساك غريبة .. كل واحد من هؤلاء يمارس عملاً عجيبًا .. أحدهم تعرى تمامًا وترك الحشرات فى المرج تلتهمه .. واحد

يصلى على أربع طيلة اليوم .. وواحد نذر ألا يرقد أثناء نومه بل يظل واقفًا يغط .. هناك امرأة عجوز أسود جلدها من الحرمان من ماء الاستحمام سبعين عامًا ..

زرنا أحد النساك ذوى الشهرة المدوية فى العالم المسيحى . وكان زحام كبير يحيط بمنسكه . كان يقوم بحركة متواصلة من ثنى جسمه بسرعة لا تصدق طيلة اليوم ، وقد خطر لى أن أربط آلة نسيج لتستفيد من هذه القوى المبددة .. وهكذا بعت الكثير من القمصان للحجاج لمدة أربعة أعوام ، والأهم أنه كان يعمل حتى فى أيام الأحد .

* * *

صباح السبت ذهبت للبئر حيث كان مرلين يحرق الدخان وينطق بكلام فارغ بأقصى ما يستطيع . قلت له :

ـ « كم يستغرق هذا العمل يا زميل ؟ »

قال لى :

ـ « أنا أستعمل أخطر تعويذة عرفها سادة العلوم الخفية .. ولن تفشل » .

ولمدة عشرين دقيقة تصاعد دخان غطى على كل شىء . فسقط أرضًا يلهث منهكًا .. وقال لكبير النساك :

— « هذه أشر روح في الكون حلت بهذه البئر .. روح لا أجـرؤ علـى تسميتها يا أبت .. لكنها لن تفارق البئر وهذه البئر لن تفيض مرة أخـرى أبدًا ... »

نظر لي كبير الرهبان في هلع يسألني عن رأيي .. فقلت له إن جزءًا من القصة حقيقي . وأنا أطلب أن يسمحوا لي بأن أنفرد بالبئر ودائرة نـصف ميل من حولها .. من الشروق إلى أن أزيل التعويذة .. المـرء يمكـن أن ينجح أو يفشل وقد يجرب . أنا سأجرب ..

نظر لي مرلين بسخرية وقال :

— « هل تجسر على نطق اسم الشيطان الذي حل بالبئر ؟ »

— « نعم أجسر .. وكل ما عليك هو أن تعود لبيتك عنـد الملـك آرثـر وتتولى شأن الطقس » .

كانت هذه سخرية منه لأن كل تنبؤاته بالطقس كانت تفشل .. لذا استبد به الغيظ وأصر على أن يبقى ليستمتع برؤيتي وأنا أحاول وقف التعويذة .

جاء رجلاي الخبيران ليلاً كانا يحملان على ظهر البغال كل ما طلبـت من أدوات .. ماسورة من الرصاص .. نار إغريقية .. صخور .. شـموع رومانية ..

عندما جاء المساء راح الرجال يعملون علـى البئـر بخبـرة .. وقبـل الشروق بساعة كان الشرخ في قاع البئر قد تم رتقه . وبدأ الماء يرتفع ، فدارينا أدواتنا وذهبنا لننام .

انتهى القداس عند الظهر فذهبنا للبئر .. لقـد ارتفع المـاء خلال تسع ساعات لمسـتواه المعتـاد . جاء الرهبـان ومعهـم مرلين ليروا ما تـم لكنهم وقفـوا خـارج الدائرة التي طلبتها .. الزحـام في كل مكان حتـى إنه بوسـعك المشي فوق الرءوس كأنها سجادة . سـاد الـصمت لأرفـع التوقعات ، ثم جعلت بعض الرجال يغنون باللاتينية .. الغرض إضفاء جـو من الرهبة . وقفت على المنصة وفتحت ذراعي ثم ألقيـت هـذه الكلمـة المروعة :

— « كونستانتينبوليتانكفايت .. ماشرجوشلافت ! »

وعلى الفور انطلقت ألعابي النارية لتنير السماء بالأزرق ثم الأحمـر .. تصايح الناس في حماسة . وحانت لحظـة فـتح المـضخات .. أعـواني ينتظرون هناك . فصحت في الناس .

— « جاءت لحظة طرد الشيطان من البئر .. تمسكوا . سـوف تـرون الماء المقدس يتفجر من باب الكنيسة !! »

وانتظرت حتى نقلوا الكلام إلى من كانوا بعيدين ، ثم صحت :

— « انظروا . إنني آمر الشيطان بأن يهجر هذه البئر » .

راح الماء يتدفق عبر المواسير التي قمت بوضعها ليلاً ، ورأيت النـاس يتدافعون ويلثمون الماء .. يكلمونه كأنه صديق عائد

لقد هزمت مرلين وتوارى . لفظت الاسم المسحور الذى لا يستطيع أحد نطقه ، وقد اعترف لى بعد ذلك أن أم هذا الشيطان ما كانت لتنطق اسمه بنفس البراعة .

وعندما اتجهت للكنيسة تراجع الجميع ليفسحوا لى .. كأننى كائن خارق .. وقد كنت كذلك . كانت ليلة مذهلة منحتنى مجدا لا بأس به .

* * *

الفصل الرابع عشر

ساحر منافس

بعد أيام رحت أراقب رئيس الدير مع الرهبان وهم ملتفون حول ساحر جديد ظهر مؤخرًا . كان يلبس ثيابًا سخيفة مبهرجة كأنه طبيب نصاب .. وكان يشوح فى الهواء .. بالطريقة المعتادة وزعم أنه مشهور جدًا فى آسيا .

كانت موهبته هى أن يخبرك بما يفعله أى شخص على ظهر الأرض ، وما سوف يفعله . وقد سأله الرهبان عما يفعله مليكه فى آسيا ، فراح يرقص قليلاً ثم قال :

ــ « الملك يضع فى هذه اللحظة بعض العملات فى كف متسول .. واحد اثنين ثلاثة .. كلها فضة » .

تصايح الناس فى حماسة :

ــ « يالروعة !... »

حكى لهم عما يفعله زعيم الإنديز وما يفعله سلطان مصر . وكلما حكى عن شيء تعالت امارات الدهشة والانبهار بدقته . أدركت أن هذا الرجل لو استمر فلسوف أفقد أتباعى .. يجب أن أوقفه عند حده وأضع عصا فى عجلته . فسألته وأنا اضع يدى تحت الوشاح .

— « هل لى أن أسأل عن شخص معين ؟ »

— « سل ما تريد » .

— « سيكون هذا صعبًا .. »

— « لا صعاب عندى .. كل شيء متاح » .

— « إذن قل لى ما الذى أفعله بيدى اليمنى !! »

هنا شهق الجميع فى دهشة .. لم يخطر ببال أحدهم أنه من الممكن السؤال عن شخص ليس على بعد آلاف الأميال . لم يخطر لهم هذا من قبل . تردد الساحر كثيرًا فقلت :

— « هلم . هل بوسعك معرفة ما يفعله الناس فى الجانب الآخر من الأرض ولا تعرف م يفعله شخص على بعد ثلاث ياردات منك ؟ ... لأنك لست ساحرًا .. »

هنا ابتسم الرجل وقد أراحت ابتسامته الناس لأن هذا يعنى أنه لن يدمرهم .. وقال :

— « ليس من الخافى على أحد أن السحرة العظماء لا يهتمون إلا بما يحدث للملوك والأمراء .. لهذا لو سألتنى عن الملك آرثر لأجبت . »

— « وماذا يفعل الملك آرثر ؟ »

— « إنه نائم فى قلعته نومة مريحة » .

قلت :

— « الملك ليس نائمًا .. إنه على صهوة جواده .. »

لم يعد أحد يعرف من يصدقه . تصادم السلطات . قال الرجل :

— « الملك والملكة نائمان الان .. غدًا ينطلقان فى رحلة نحو البحر » .

— « هذه كذبة أخرى .. الملك والملكة فى طريقهما لهذا الوادى .. »

كانت هذه ضربة موفقة وقد جعلت الرهبان يشهقون فى إثارة . الحقيقة أننى كنت قد أقمت نظام اتصال يشبه أسلاك الهاتف . من بلدة لأخرى تنتقل الأخبار .. وقد علمت أن الملك سوف يصل لهذه البئر يوم الثلاثاء فى الساعة الرابعة . لكن الناس صدقوا كلام الساحر الآخر ولم يستعدوا لقدوم الملك قط . تأمل تفكير الناس !.. أنا الشخص الوحيد الذى جعلهم يرون معجزة فعلاً .. لكنهم برغم هذا يصدقون الساحر الاخر الذى لم يظهر أى دليل على قدراته .

برغم هذا رتبت لاستقبال الملك ببعض الحجاج والرهبان .

وفى الثانية ظهرا ناديت رئيس الرهبان ليرى بعينيه موكب الملك قادمًا من بعيد . بلا شخص يستقبله ولا أجراس تدق . سرعان ما جرى الرجل وراحت الأجراس تدق وراحت المبانى تتقيأ ما بها من رهبان وراهبات ..

لقد سقطت سمعة الساحر فى الوحل . وبلغت سمعتى السماء يجب أن تكافح لتبقى نجاحك فى هذا البلد .

* * *

عندما يسافر الملك أو يقرر أن يخرب بيت أحد النبلاء بتكاليف استضافته ، فهو يصحب معه بعض أركان حكومته .. وكان معه فى هذه المرة الهيئة التى تفحص المتطوعين للجيش . كان معظم هذه اللجان من الرهبان طبعا لأنهم الوحيدون الذين يستطيعون القراءة والكتابة فى زمن كهذا . وبالتالى هم لا يفقهون شيئا فى الحرب واختيار الجنود ، بينما كنت أنا قد أنشأت فى خيالى كلية وست بوينت كاملة .

كان معظم المتطوعين جهلة تماما يعتبرون القراءة والكتابة عارًا ، ويعتبرون جدول الضرب شيئا شيطانيًا .. أما عندما سألتهم عن قانون الجاذبية فقد قالوا إنهم كانوا متغيبين فلم يسمعوا آخر قوانين استنها الملك آرثر .

* * *

الفصل الخامس عشر

رحلة الملك واليانكى

أخبرت الملك بأننى أنوى التنكر كمتسول لأجوب البلاد وأعرف حياة الناس المتواضعة . راقت له الفكرة وخطر له أن يشاركنى المغامرة .. لكنه كان حزينًا لأن السير لانسلوت موجود هنا . متى كان السير لانسلوت موجودًا فالملكة لا تهتم إن جاء آرثر أو رحل .

كانت الملكة جنيفر بارعة الجمال ، لكنها مستهترة . وكانت لا تكف عن القلق على لانسلوت والسؤال عنه ، بينما لم تبد أى قلق على الملك .

عندما جاء المساء أخذت الملك لجناحى وقصصت له شعره وساعدته على ارتداء الأسمال . وضعت سلطانية على رأسه ثم قصصت كل الشعر الذى خرج منها . وقصصت شاربه وسالفه حتى صار طولهما بوصة واحدة .. ارتدى الصندل والعباءة فبدا منظره شيطانيًا ..

تنكرنا بنفس الطريقة ، فبدا منظرنا كالفلاحين أو الرعاة . ثيابنا هى الأرخص لذا يلبسها كل الفقراء .

خرجنا بعد الفجر بساعة ، ومشينا عبر بلاد نصف مستقرة .. كنت أحمل حقيبة ظهر فيها بعض المؤن . المؤن التى يمكن لملك أن يعيش عليها بعض الوقت .

وجدت له مقعدًا يجلس عليه على جانب الطريق ، ثم ابتعدت عنه . الغرض الرئيس كان أن أجلس قليلاً . فلم أكن أجلس في حضرته أبدًا . برغم أن هذا صار من ضروريات التخفي .

سمعت صوت جلبة فحسبتهم فلاحين استيقظوا مبكرًا ، ثم فطنت إلى أنه جمع من الفرسان المسلحين ، فجريت للملك وطلبت منه أن يقف ويبدو متسولاً متواضعًا ... حاول ذلك بصعوبة .. قلت له :

ــ « نحن بلا سلاح .. وهذا الحشد قادم . يجب أن يصدقوا أننا فقراء .. لن نبدو كفلاحين بل نفكر كفلاحين » .

وعد بأن يجرب .. لقد صرت أتصرف معه كأم تحاول جاهدة أن تنقذ ابنها من ورطة . كان يحاول جاهدًا أن يبدو طبيعيًا لكنه كان فاشلا تماما .

مثلاً رأيته يخرج خنجرًا من عباءته وصدمني هذا . ليس مسموحا لنا كعامة أن نحمل سلاحًا ..

قال لي :

ــ « أنت قادر على التنبؤ . أنا معترف بأنك ساحر أقوى من مرلين ، لكنه يتنبأ .. والتنبؤ أقوى من السحر » .

شعرت بأنه يجب أن أغير سياستي ، فقلت :

ــ « مرلين يمكنه التنبؤ بما سيحدث قريبًا أو خلال عشرين سنة .. أما أنا فبوسعي أن أخبرك بما سيحدث بعد مئات السنين ربما 700 سنة . »

لم يكن عليك أن تثبت كلامك مع هؤلاء القوم .. كل ما عليك هو أن تقوله .. قلت له :

ــ « أنا أترك لمرلين عمليات التنبؤ السهلة لكنك تعرف مثلاً أنني تنبأت بقدومك قبل أن يقع بيومين .. »

كان الملك نهمًا لمعرفة ما سيحدث في الـ 13 قرنا القادمة كأنه يتوقع أن يعيش فيها جميعا .. هكذا رحت ألعب دور النبي . مارست أفعالاً مشينة كثيرة في حياتي لكن هذا كان أسوأها ..

ذات مرة مر بنا فارسان . فوقف الملك إلى جانب الطريق وقد أبدى التواضع كفلاح لكنهما اندفعا جواره حتى كادا يمزقانه تحت الحوافر . ما أن ابتعدا حتى وقف غاضبًا محنقًا .. نظر الفارسان لنا من بعيد ثم وجدا أنه من العبث الاهتمام بحثالة مثلنا .. وفجأة أطلق الملك سبة .. فاندفع الفارسان عائدين نحونا والغضب يعميهما .

كان هذا هو الوقت المناسب كي أفجر الديناميت الذي ظللت طويلاً أحتفظ به في حافظة ظهري . كنت أدخره لعمل معجزة ما .. هكذا فجرت الديناميت أمام الحصانين . بدا المشهد كأنه انفجار سفينة بخارية في المسيسبي .. ولعدة دقائق أمطرت السماء علينا دروعا وأجزاء من الفرسان . وتحققت حفرة سيجهد الناس أنفسهم في فهمها لعدة أعوام

أقنعت الملك بصعوبة أن هذه الخدعة لا يجب تكرارها .. والحقيقة أن السبب هو أن هذا كان آخر ديناميت معي .

الفصـل السادس عشـر

الملك يتـدرب

كان على أن أدرب الملك على أن يبدو فقيرًا .. لذا رحت أقول له :

— « اخفض ذقنك مـن فضلك .. لا تنظـر للأفق من فضلك بل انظـر للأرض .. هكذا أفضل .. لكن ثمة شيء مهم ناقص . لا أعرف ما هـو . امش ثلاثين خطوة لأملأ عيني منك هكذا رأسـك معتـدل .. كتفـاك معتدلان .. كل شيء صحيح وبرغم هذا شيء ما خطأ » .

— « وماذا أفعل لأكون مقنعا ؟ »

— « سوف نمضي فترة هنا نتدرب على المشي .. وعندما ندخل كـوخ أحدهم فعليك ألا تنادي رب البيت بالخادم أو الوصيف »

— « سوف أناديه بالرجل الطيب » .

— « لا بأس .. لكن الأفضل أن تسميه (الأخ) .. »

— « أقول (أخ) لهذه القذارة ؟ »

— « نحن نحاول فعلا أن نكون بهذه القذارة .. وعليك أن تطلب الطعـام لك ولي .. وتطلب المأوى لك ولي . لو لم تفعل فلسوف يفترض صـاحب الكوخ أننا لسنا متساويين » .

كان رأس الملك شبيهًا بزجاجة الساعة .. يستوعب كل شيء لكن عليك أن تعطيه حبة رمل في كل مرة ..

لقد نجحت في كل شيء لكن ظل كتفاه عنيدين يرفضان الانحناء . قلـت له :

— « تخيل أنك مدين وأنك فقدت عملك — وهو إصلاح حدوات الخيول — وأطفالك جياع وزوجتك مريضة .. »

كلام سهل لكنه غير قادر على التأثير على أحد . السبب هو أنه لا يوجد في الكون مال كاف .. العمل العقلي يجلب الكثير من المال مقارنة بالعمـل اليدوي . بالإضافة لهذا هو ممتع . قانون العمل لا يتغيـر .. كلمـا زادت متعتك من العمل ، كلما كان أجرك أعلى ..

* * *

بلغنا ذلك الكوخ عند العصر فلم نر علامات حية من حوله كل شيء ينطق بالخراب والفقر . والصمت يذكرك بصمت الموت .

كان الباب مواربًا فدنونا على أطراف الأصابع .. قرعنا الباب وانتظرنا . رأيت في الظـلام خيـال امرأة على الأرض تبدو كأن مجيئنـا أيقظهـا قالت لنا :

— « الرحمة .. لم يبق شيء هنا .. »

— « لم آت لآخذ شيئًا يا امرأة » .

— « أنت لست قساً ؟ »

— « لا .. أنا غريب . »

في الضوء الخافت رأيت مدى ضمورها ... قالت لي :

— « المكان لعنته الكنيسة . فر بجلدك .. اتركنا أيها الغريب النبيل وخذ معك بركاتي » .

كان من الواضح أنها ظمآنة فبحثت عن وعاء خشبي وهرعت إلى الجدول القريب أملؤه بالماء ، وعدت للكوخ . كان الملك قد أزاح مصراع النافذة ليدخل ضوء الشمس والهواء . راحت المرأة تشرب في نهم .. هنا سقط الضوء على وجهها فأدركت أنها مصابة بالجدري !

قلت للملك :

— « اخرج من هنا يا سيدي فالمرأة مصابة بالوباء الذي هز كاميلوت منذ عامين » .

لكن الملك لم يتزحزح لأنه رأى أن الفرار عار .

قالت المرأة :

— « سيدي هلا صعدت هذا السلم وألقيت نظرة وأخبرتني بما تجده ؟ لا تخف .. فقلب الأم لا يتحطم إذا كان محطماً بالفعل » .

نظر الملك فوق السلم كما قالت فرأى رجلاً نائماً . قال لها :

— « هل هذا زوجك ؟ إنه نائم ... »

— « الحمد لله أنه نام .. ولن يوقظه شيء أبداً فقد مات » .

تسلق الملك السلم ثم هبط وثمة شيء رقيق تحت إبطه . فتاة في الخامسة عشرة نحيلة جداً تموت بالجدري . كانت هذه هي الشجاعة ذاتها .. مواجهة الموت الأكيد في هذا المكان المظلم بلا مهرب ، ومن دون شهود يقرون بشجاعتك . إنه يحمل الموت بين يديه .

أرقد الفتاة جوار أمها فراحت الأم تملس عليها وتلثمها .. كدت أسقي الفتاة فقالت الأم :

— « لا . هي لا تتعذب .. هذا أفضل . ربما أعادها الماء للحياة بينما لا يوجد ما تعيش من أجله .. أبوها وأخواها رحلوا . الكنيسة لعنتها .. »

وحكت لنا مأساتها منذ كانت أسرة سعيدة .. سعيدة بمعنى أن أفرادها لم يموتوا إلى أن استولى إقطاعي على أرضهم الصغيرة ، وسجن ابنيها وعاشوا على الكفاف ثم أصيبوا بالجدري ، فلعنت الكنيسة هذا الكوخ ومنعت دخوله .

قدمت لها بعض الطعام والشراب فرفضت بقوة .. لا تريد أن يقف شيء بينها وبين مصيرها . وفجأة نظرت لابنتها وصرخت :

— « ابنتي ! »

واحتضنت جسدها المتصلب بين ذراعيها .. لقد شعرت بقدوم الموت .

* * *

الفصل السابع عشر

مأساة في العزبه

عند منتصف الليل انتهى كل شيء وجلسنا مع أربع جثث ، فغطيناها كيفما اتفق وأغلقنا الباب متأهبين لنواصل الرحلة لم يكن مسموحا لهم بالدفن على الطريقة المسيحية ، بل هم أقرب لكلاب أو مجذومين

سمعت صوت خطوات فأصابني الهلع وابتعدت بالملك لا يجب أن يرانا أحد نغادر هذا البيت الذي منعت الكنيسة دخوله .

سمعنا صوت دقات على الباب فارتجفنا ، وجاء صوت يقول :

— « أبي .. أمي . لقد تحررنا . لدي أخبار رائعة لكما . لماذا لا تردان ؟ »

هنا انفتح الباب وعرفت أن هذين الرجلين هما ابنا السيدة ... سيجدان جثث أهلهما . فررنا بسرعة من الكوخ لأننا نخشى لحظة أن يكتشفا الجثة .. رحت أجري في الطريق ويتبعني الملك .

حاولت أن أبعد المشهد عن ذهني فقلت :

— « أصبت بنفس المرض من قبل لذا أنا منيع ضده .. لكن بالنسبة لك ... »

كان الملك يفكر ثم قال لي :

— « كيف تحرر هذان ؟ أعتقد أنهما هربا ولم يطلق سراحهما » .

— « أعتقد هذا » .

— « إذن كان علينا أن نقبض عليهما ونسلمهما للشرطة .. مالكهما لا يجب أن يعاني العار » .

كان هذا هو الأمر .. لقد ولد هكذا وتربى هكذا .. دمه يفيض بهذه القسوة ولا يرى العالم إلا هكذا . لا يرى عارا في العبودية وتعذيب البشر لكنه يرى العار في هروب هذين من سجن سيدهما .

كانت هناك غابة مظلمة قررنا اجتيازها . وكانت هناك عاصفة دانية بدأت السماء تضيء بالبرق منها .

مشينا في الظلام فاصطدمت بشيء ثقيل لكنه طري نوعا . . وهنا التمع البرق فرأيت وجه رجل مشنوق من أحد أغصان شجرة !... بدا مع العاصفة كأنه يتلوى .. مشهد شنيع . يجب أن نقطع هذا الحبل فربما بقيت بعض الحياة في الرجل . لكن آرثر اعترض :

— « لو كان قد شنق نفسه فهو قد قطع علاقته بالرب ويستحق أن يظل معلقًا . ولو كان هناك من شنقوه فلا بد أن لهذا سببًا » .

واصلنا المشي فعددنا نحو ستة مشنوقين ، ثم مر بنا رجال يطاردون بعضهم .. وتعالى صوت زئير من حناجر رجال . ثم رأينا عزبة تحترق ومزيدًا من رجال يركضون . طلبت من الملك أن نتوارى في الغابة لأن هذا ليس مكانًا آمنًا للغرباء .

مضى الوقت ثم خمد اللهب وكفت الأصوات ..

فررنا بعيدا نحو ستة أميال من هذا المكان ، وطلبنا المبيت لدى تاجر فحم . سألتنا زوجته عما إذا كنا سمعنا عن الأحداث البشعة فى عزبة أبلاساور ..

نمنا حتى الظهر ثم صحونا جائعين .. لدرجة أن طعامهم الريفى المكون من بصل وخبز أسود بدا رائعا للملك . حكت لنا الزوجة عن حريق شب فى العزبة أمس وتم إنقاذ الأسرة كلها ما عدا المالك .. وجدوا المالك على بعد ميل مقيدًا ومطعونًا ، واتهموا أسرة معينة تعرضت لظلم من هذا المالك . وتم اعتقال أفراد هذه الأسرة جميعا وشنقهم .. زوج المرأة كان ضمن العصابة التى أعدمت المتهمين . لقد تم ذبح أو شنق 18 شخصا .. أما السجناء فى قبو العزبة فقد فروا . لا بد أن من بينهم ابنى تلك الأسرة المبتلاة بالجدرى .

لاحظت أن هؤلاء القوم ينحازون لسادتهم وليس لطبقتهم .. فى أى صراع بين سيد إقطاعى وبين رجل فقير مثلهم ، فهم يقهرون الفقير ويسحقونه . هذا محبط جدًا لرجل يحلم بتكوين جمهورية .

لكنى برغم كل شىء أدركت أن تاجر الفحم مسرور نوعا بما حدث لمالك العزبة . هناك جذوة غضب لدى هؤلاء القوم تسمح بتكوين جمهورية .

كنت أحلم .. أحلم باستمرار الملكية حتى يموت ارثر ، ثم إزالة النبلاء وإرغامهم على امتهان أعمال مفيدة ، ثم جعل الجميع متساوين

الفصل الثامن عشر

اليانكى والملك يباعان كرقيق

للأسف بدأ بعض الفلاحين يتشككون فى أمرنا ، وأبدى الملك بعض الآراء الغريبة مما جعلهم يطاردوننا إلى الغابة ويقذفوننا بالحجارة .. تسلقت أنا والملك احدى الأشجار ، لكن الفلاحين أشعلوا النار . وهكذا وجدنا أننا نوشك على الاختناق من الدخان ..

وثبنا من فوق الشجرة ونحن غارقان فى الدخان والسعال ، وفجأة سمعنا صوت فارس يقول :

ـ « توقفوا وإلا فأنتم رجال موتى ! »

ما أجمل هذا الصوت !.. كل مخايل هذا الفارس تدل على النبل والسيطرة ..

تراجع الجمع الغاضب بينما تفحصنا الفارس ثم سألهم :

ـ « ماذا تفعلون بهذين ؟ »

ـ « هما رجلان مجنونان يا سيدى » .

ـ « أحقًا لا تعرفون من هما ؟ »

ـ « أيها السيد النبيل .. هما غريبان لا يعرفهما أحد وهما متوحشان » .

قلت للغريب :

ــ « نحن مسالمان يا سيدى .. نسافر فى سلام .. ولولا تدخلك الشجاع لقتلنا هؤلاء القوم » .

قال الفارس لرجاله :

ــ « اضربوا هذه الحيوانات بالسوط لتعود لأعشاشها » .

هنا فر الفلاحون بينما الفرسان يجلدونهم .. ثم أمرهم الفارس أن يضعونا على سرجى حصانين . ومشينا فى خلفية الموكب بين الخدم . . ثم قضينا الليل فى حانة ، فتناول السيد العشاء ثم أخلد للنوم فلم نره إلا فى الصباح .

عرفنا فى الصباح أن الفارس يدعى لورد جريب وأرضه تقع على مسيرة يوم ، وقد أصر على أن تصحب موكبه حتى نكون فى أمان حتى نبلغ المدينة التالية .

وصلنا للمدينة حيث زحام الناس فشكرنا اللورد وترجلنا ، ثم اقتربنا من تجمع للناس لنرى مصدر اهتمامهم . كان هذا حشدًا من العبيد المقيدين بالأصفاد ..

لم أستطع إبعاد عينى عن هذه المهانة للبشرية .. نسيت أننى من العامة وتذكرت فقط أننى إنسان ... وتحمست .. فجأة .. كليك !.. سرعان ما وجدت أننى والملك مكبلان بالأصفاد !

ونظرنا لنجد أن الخدم المحيطين بنا يراقبون الموقف .. لقد كانوا يعرفون . وقال اللورد للخدم :

ــ « خذا هذين العبدين وقوما ببيعهما ! »

ثار الملك آرثر وطوح بأصفاده ، لكن الأوغاد تكاثروا علينا .. وسرعان ما وجدنا أيدينا مكبلة خلف ظهورنا . وصاح الملك :

ــ « أنا لست عبدًا !! »

هنا قال أحد الخطباء فى السوق :

ــ « إذن أثبت أنك رجل حر .. عليك أن تبرهن لنا على أنك لست عبدا ... نحن نعتمد على كلام سيدك » .

صرخ الملك آرثر :

ــ « سيدى ؟ ليس لى سيد ... أنا السيد » .

الخلاصة أنه تم بيعنا فى مزاد . بعد مئات السنين فى الجنوب الأمريكى سيباع ناس أيضا لانهم لا يستطيعون إثبات أنهم أحرار ، لكن تأثير التجربة الشخصية كان قاسيا

الأسوأ أن هذا البلد كان رخيصًا لذا تم بيعى بسعر يثير الخجل . بيع ملك إنجلترا بسبعة دولارات وتابعه بتسعة بينما كان الملك يساوى 12 دولارًا على الأقل ..

قام النخاس بربطنا في سلسة طويلة في مؤخرة بضاعته ، وبدأنا المشي مارين بكامبنت .. من الغريب أن يمشي ملك انجلترا وتابعه مصفدين تحت عيون الجميع فلا يهتم أحد الفضوليين بالأمر . هذا يدل على أن الملك والصعلوك متساويان ما دمت لا تعرف . فقط عندما تعرف أنه ملك تتقطع أنفاسك .. نحن حمقى .. لا شك في هذا ..

* * *

أعتقد أن أشد ما أحزن الملك ، لم يكن سقوطه من قمة المجتمع إلى القاع ، بل ما حز في نفسه هو الثمن المهين الذي بيع به . صدع رأسي محاولاً إقناعي أنه لو كانت الحياة عادلة لساوى 25 دولارًا . وأنا أشك في أن العالم رأى ملكًا يساوي هذا السعر قط ..

وقد تكفل النخاس بتحويل الملك إلى عبد فعلاً . لا داعي للوصف لكن أؤكد لك أنه خلال أسبوع كانت السياط قد مزقت ظهره . لكن روحه ظلت شامخة . لم ير النخاس من قبل عبدًا يظل رجلاً حتى يموت . فالملك كان أكبر من الملك بكثير . كان رجلاً . والرجل لا يمكن سحقه .

كنت في ذلك الوقت راغب بشدة في التحرر .. في الفرار .. لقد أقنعت الملك من قبل بعدم التهور ، ولكنني أتوق للحرية بشدة . وضعت خطة سوف تستغرق وقتًا وصبرًا ..

كنا نمر بمغامرات عدة . ذات مرة مررنا بموكب كبير ويا له من موكب !.. يخيل لك أن كل رعاع المملكة كانوا فيه . كانت هناك عربة وفوقها تابوت .. وفوق التابوت فتاة حسناء ترضع طفلاً . في عينيها دموع لكن رضيعها يضحك ويحتضن ثديها بيده الصغيرة المكتنزة . كان الرعاع يجرون جوار العربة وهم يطلقون السباب وأقذع الألفاظ .. كنا خارج لندن وبدا لي أن هذا هو المجتمع (اللندني) .

كانت هناك مشنقة ، وقد جاء جلاد ساعد الفتاة على الصعود فوق مقعد . وقف المأمور جوارها ينظر للوجوه المحملقة ، وبدأ يحكي قصتها .

ـ « القانون هو العدل . أحيانا يخطئ القانون فلا نملك سوى أن نصلي من أجل روح من سقطوا تحت ذراع القانون القانون حكم على هذه الشابة بالموت . كانت هذه الفتاة ابنة 18 عاما زوجة سعيدة وأمًا . وكان زوجها يكافح للظفر بلقمة شريفة ، ثم حدث ما جعلهم يرسلونه عبر البحار .. الزوجة بددت كل ما تملكه من أجل الطعام . وعندما نفد ما لديها طردت في الشارع وراحت تتسول . في النهاية سرقت قطعة قماش وقبض عليها .. وقد تعاطف معها الجميع . لكن المدعي العام أصر على أنها مدانة . لا يمكن الصفح عن هذه الجريمة أمام المجتمع . وهكذا حكم القاضي عليها بالموت فهب صاحب قطعة القماش يرتجف ويصرخ : البائسة .. لم أعرف أنه الموت !!. وانتحر في نهاية اليوم . هكذا أضيف موته الى جرائم الفتاة .. »

وضعوا الأنشوطة حول عنقها بينما كانت تقبل طفلها في نهم . وكان الطفل يضحك . مما حرك القلوب حتى قلب الجلاد نفسه . وانتزع الكاهن الطفل من بين ذراعيها . فصاحت :

ـ « طفلي سيموت .. لا أم ولا أب ولا بيت .. سيموت » .

قال الراهب :

ـ « لديه هذا كله فأنا سأربيه حتى أموت » .

بدا على وجهها تعبير من الامتنان .. تعبير حملته معها للسماء للأبد .

* * *

الفصل التاسع عشر

المـــأزق

بدت لنا لندن كقرية كبيرة .. وقد قابلنا الكثير من الفرسان الذين نعرفهم ، لكنهم لم يعرفونا في هذه الأسمال التي نلبسها . مرت بي ساندي على بعد خطوات فلم تنظر لي على الإطلاق .

لكني سررت إذ لمحت بائع صحف ولمحت سلكًا ينحدر من بيت لبيت .. كان هذا هو سلك التلغراف .. السلك الذي علمته لهؤلاء القوم ، وكان هو سبيلي للفرار لو حصلت على جزء منه . كنت أتمنى أن نفر ذات ليلة أنا والملك .. نقيد النخاس . نلبسه ثيابنا .. نضعه ضمن العبيد ونفر نحن ..

كان الملك قوي الجسد مهيبًا لكن أحدًا لا يريد عبدًا كهذا .. أما أنا فقد صار سعري 22 دولارًا بلا مناقشة ، ولم يكن أحد راغبًا في دفع سعر كهذا . هكذا عرفت أنني لن أفارق الملك فكلانا سلعة كاسدة ..

فقط لو وجدت قطعة حديد تصلح لفتح القفل وقد استطعت بالفعل أن أجد واحدة . قلت للملك إننا سوف نفك القيود وننتظر وعندما يأتي النخاس لتفقدنا ، سوف نقهره ونأخذ ثيابه ونفر . راقت الفكرة للملك .

انتظرنا في المساء حتى نام زملاؤنا العبيد ليس من الحكمة أن تخاطر مع هؤلاء متوقعًا ألا يفشوا سرك .

كان فك القفل صعبًا .. فى كل مرة تحدث جلبة لا بد أن توقظ واحدًا من الغافين . فى النهاية تحررت .. وعدت رجلاً حرًا . تنهدت ثم رحت أجرب مع قيود الملك . لكنى تأخرت !... لقد ظهر السيد حاملا شمعة ، فتكومت جوار رفاقى ورحت أغط حتى أخفى أننى صرت بلا أصفاد .

تفقد الرجل النائمين ثم ابتعد وأغلق الباب . كان معنى هذا فشل الخطة .. صرخ الملك آرثر :

ـ « هلم .. هاته ! »

وثبت فى الظلام الدامس نحو الباب قبل أن ينطق وخرجت أبحث فى الظلام . فاصطدمت بشىء طرى .. لا بد أنه هو النخاس ، ودار بيننا صراع محموم . وسرعان ما ارتمينا على الأرض خارج السرداب نتقاتل .. جاء مجموعة من الحراس حاملين المشاعل وفصلونا عن بعض ، ثم اقتادونا بعيدًا . يبدو أنهم يريدون أن يلقوا بنا فى الحجر .

لقد فشلت مهمتى .. لكن ماذا يفعل النخاس عندما يجد أن مهاجمه هو أنا ؟ وماذا لو سجنونا فى مكان واحد ؟ لكنه أدار وجهه لى فأدركت أنه ليس نفس الشخص !

* * *

كانت ليلة طويلة لكن الصباح جاء أخيرا . عندما استدعونى للتحقيق كذبت وزعمت أننى عبد وأن سيدى قد مرض ، هكذا طلبوا منى أن أجرى بأقصى سرعة لأجلب الطبيب .. جريت فى الظلام بسرعة فاصطدمت بهذا

الرجل العامى . توسلت له أن يتركنى لأنقذ حياة سيدى الأيرل لكنه ضربنى ورفض تركى ..

صاح الرجل إن هذا كذب وإننى هاجمته فى الظلام بلا سبب ، فأمر القاضى رجاله بجلده :

ـ « اضربوه حتى يتعلم ألا يعترض طريق خادم أحد النبلاء . ! . »

أطلقوا سراحى فى النهاية فعدت مسرعًا بلا إفطار إلى مخيم العبيد .

هنا فوجئت فى رعب أن الجميع قد رحلوا !.. كلهم ما عدا نخاس العبيد نفسه الذى رقد على الأرض فاقد النطق .. كان مشاجرة حدثت هنا

كان هناك تابوت على عربة ، وكان بعض الحمالين يحملونه ليدخلوا المكان ..

حكى لى أحد الواقفين :

ـ « كان هنا 16 عبدًا قد ثاروا على سيدهم وقتلوه » .

ـ « كيف حدث هذا ؟ »

ـ « قيل إن أغلى عبد هنا قد استطاع الفرار بحيلة سحرية . عندما اكتشف السيد فرار العبد جن .. حمل العصا وانهال بها ضربًا على عبيده .. فقاوموا وضربوه بدورهم حتى مات » .

صحت :

ـ « هذا شنيع .. وهل حوكم هؤلاء ؟ »

ــ « محاكمة ؟ لقد انتهت !.. هل حسبتها تستغرق أسابيع ؟ لم تستغرق سوى ربع ساعة .. »

ــ « وكيف وجدوا الفاعل ؟؟ »

ــ « لا يهتمون بتفاصيل بسيطة كهذه .. هذا هو القانون الذى تركه لنا الرومان .. لو أن عبدًا قتل سيده فكل العبيد لدى السيد يقتلون » .

ــ « ومتى يموت هؤلاء ؟ »

ــ « خلال 24 ساعة .. ربما بعد يومين إلى أن يجدوا العبد الابق » .

شعرت بقلق وسألت :

ــ « هل سيجدونه ؟ »

ــ « بالتأكيد .. حراس فى كل مكان وعلى كل بوابة وعبيد ممن يعرفون شكله فى كل ركن » .

تركت الرجل .. وعند أول ناصية ابتعت عباءة مختلفة ، وربطت معظم وجهى بوشاح كمن أصيب بألم فى أسنانه .. ثم تسللت إلى مكتب التلغراف الموجود فى محل جزار هنا . دخلت ففوجئ الشاب المسئول وكاد يصرخ ، لولا أن وضعت يدى على فمه وقلت له :

ــ « لو صرخت فأنت ميت .. هلم اطلب كاميلوت » .

ذهل الفتى لأن مظهرى لا يوحى بأنى أعرف قدرات التليغراف . فليفعل هذا وإلا طلبتها أنا بنفسى فأنا رجل يائس .

ــ « اطلب كلارينس » .

ــ « كلارينس من ؟ »

ــ « لا يهم .. فقط اطلب كلارينس » .

لم أضيع وقتى فى تحية كلارينس بل قلت له :

ــ « الملك هنا وفى خطر . تم القبض علينا كعبيد لا يمكننا البرهنة عن شخصيتنا . أرسل 500 فارس يقودهم السير لانسلوت .. ليأتوا حالاً ويدخلوا لندن من الباب الجنوب الشرقى . ابحث عن رجل يلبس خرقة بيضاء على يده اليمنى » .

جاءت الإجابة :

ــ « سينطلقون خلال نصف ساعة » .

غادرت المكان قلقا .. فرسان ودروع .. يتحركون فى التاسعة لكنهم لن يستطيعوا الإسراع .. لا أوحال والطرق ممهدة .. سيغيرون الخيول مرتين . سيصلون فى السادسة .. سيروننى بالشش على ذراعى وسوف أتولى القيادة . ثم ننطلق للسجن لنحرر الملك .

لكن الأمر كان خطرًا .. عند أحد المنعطفات قابلت أحد العبيد من زملائى مع حارس . سعلت فنظر لى نظرة قاتلة .. لا بد أنه يتساءل متى سمع هذه السعلة من قبل .

جريت إلى زقاق جانبى خلف المتجر وزعمت لبائعة أننى ضابط متنكر أطارد العبيد الهاربين . لكنى وجدت نفسى بلا سابق إنذار أمام ضابط ، والأصفاد فى يدى .

غضبت وأقسمت أننى جئت من رحلة طويلة فى البحر . فى النهاية تفحصنى العبد بدقة وعرفنى . هكذا كففت عن الكذب ولمته على تسليمى لهم ، لكنه لم يخجل بل اندهش .. وقال :

ـ « ألم تفر أنت وتتسبب فى شنقنا ؟.. أنت المسئول .. هذا مضحك » .

برغم هذا كان فى كلامه منطق لا بأس به .

قلت للعبد :

ـ « أنت تعتقد أنهم سيشنقوننا بعد يومين .. أليس كذلك ؟ .. هذا لن يحدث » .

قال :

ـ « بل هو سيحدث ظهر اليوم !!.. لقد كانوا ينتظرون العبد الآبق وهم قد وجدوه !! »

هنا فهمت الموقف الخطر ...

هكذا لم يعد هناك تأجيل . عندما يصل الفرسان سيكون الشنق قد تم منذ أربع ساعات . لقد عثروا على العبد المفقود .

* * *

الفصـل العشـرون

سير لانسلوت والفرسان

بدأ المشهد خارج أسوار لندن .. يوم جميل صحو تتمنى أن تعيش فيه لا أن تموت . لقد أعدوا منصة مريحة يجلس فيها النبلاء وزوجاتهم لمراقبة الإعدام . أنت تسلية نهاية الأسبوع لهؤلاء القوم .

وثب الملك ليواجه القوم وقد امتلأ بالكدمات والقذارة وأعلن أنه هو الملك آرثر ، وأنه سيعاقب بالخيانة كل من يمس شعرة من رأسه .. هنا اندهش عندما قوبل بالضحكات والسخرية .

ـ « دعوا الملك يتكلم دعوه يسمعنا قطوف الحكمة » .

تحرك رؤساء الشرطة ببطء ، مما يعنى أن الطقوس ستبدأ . وتلوا علينا جرائمنا وحكم الإعدام .. ثم جاء القس يصلى على أرواحنا .

ما أجمل أن يظهر الفرسان الآن ! لكن هذا غير وارد بهذه السرعة ..

تدلى أول العبيد من المشنقة وراح يتلوى لأن أطرافه غير مربوطة .. ثم تلاه عبد آخر .

كان الأمر مخيفًا . أدرت رأسى جانبًا عندما لم أر الملك ! . لقد كانوا يضعون العصابة على عينه !.. أصابنى الشلل من الرعب . ووضعوا الأنشوطة حول عنقه . وثبت من مكانى صائحًا

هنا رأيت في الأفق الفرسان الخمسمائة قادمين !... كانوا يركبون الدراجات التي علمت المملكة صنعها .. ياله من مشهد عظيم .

لوحت بيدي بينما اندفع نحوي لانسلوت .. فصحت :

ـ « على ركبكم يا أوغاد . حيوا الملك !... من لا يفعل سيبيت في الجحيم الليلة » .

كان من المثير أن ترى الحشد يتراجع في رعب . لقد كان من أهانوه منذ دقائق هو الملك فعلاً . لقد امتلأت بالرضا والنشوة .. هذا مشهد من أروع ما رأيت ..

هنا رأيت كلارينس قائمًا بنفسه . قال لي :

ـ « مفاجأة مذهلة .. أليس كذلك ؟ قررت أن آتي بنفسي وكنت قد جعلت الأولاد يتدربون على الدراجات قليلا قبل أن نأتي »

* * *

لقد عدنا لكاميلوت أخيرًا ..

بعد يومين جلست أطالع الصحف على مائدة الإفطار ، فوجدت في صفحة الإعلانات خبرًا يقول :

ـ « اللورد العظيم والفارس المغوار سير ساجامور لو ديزيوس سوف يتنازل ويواجه وزير الملك المسمى (هانك) والشهير بالسيد ، وهذا من أجل تسوية لإهانة سابقة . سوف يتواجهان في الساعة الرابعة من صباح

اليوم السادس عشر من الشهر القادم . وستكون مواجهة حتى الموت لن يسمح فيها بالصلح . وهذه أول مبارزة تتم طبقًا للقانون الجديد الذي يتيح لكل متبارز أن يستخدم السلاح الذي يروق له » .

راحت كاميلوت كلها تتكلم عن هذه المبارزة ..

لم يكن سبب اهتمامهم أن ساجامور وجد الكأس المقدسة ، وهو لم يجدها طبعًا ، ولا كان الاهتمام لأن أهم ثاني رجل في المملكة يشارك في المبارزة . سبب الاهتمام أن هذه ليست معركة بين فارسين بل هي صراع بين ساحرين .. مرلين وأنا ..

كان الكل يعرف أن مرلين مشغول يزود دروع سير ساجامور بقوى سحرية .. من ضمن هذه القوى ثوب يجعله خفيًا . لا يستطيع أي عدد من الفرسان قهر رجل كهذا ..

جاء يوم المواجهة فنصبت الخيام . وجاءت الأرستقراطية البريطانية كلها ورفرفت الرايات . كان هناك الكثير من الفرسان الذين يرغبون في الخلاص مني لأن علاقتنا سيئة .

كانت هناك خيمتان .. واحدة لي والأخرى لخدمي . أعطى الملك إشارة فظهر المنادون يعلنون أسباب المواجهة .. حبس الكل أنفاسهم وراحوا يلتهمون المشهد في فضول

من خيمته ظهر سير ساجامور كأنه جبل من الحديد والرمح في يده .. مشهد نبيل بحق . وصاح الناس في إعجاب وانبهار

عندما ظهرت أنا ساد الصمت .. ثم دوت الضحكات . كنت ألبس ثيابًا مريحة خفيفة وبلا خوذة . وكان حصاني صغير الحجم لكنه رشيق سريع الحركة ناعم كالحرير .

قابلت برج الحديد ثم مشيت معه إلى حيث كان الملك يجلس جوار الملكة .. أدينا التحية فقالت الملكة :

— « أيها الرئيس .. أتحارب عاريًا بلا دروع ولا سيف ؟ »

أشار لها الملك بأناقة بما معناه أن هذا ليس شأنها ..

ظهر مرلين من مكان ما وبعثر على السير ساجامور مساحيق جعلته يبدو كشبح أبي هاملت . ثم إن الملك أعطى إشارة فاندفع مرلين كالسهم نحوي بينما تصاعد الصياح ..

عندما صار الرمح على بعد خطوات أزحت الحصان بخفة جانبًا فاندفع الفارس جواري . كررت هذا التكنيك عدة مرات حتى تعالى التصفيق وجن السير ساجامور .. وراح يطلق السباب ..

أخرجت الأنشوطة من سرج حصاني وصوبتها نحوه .. كان قادمًا والدم في عينيه فانتظرت حتى اقترب ثم قذفته بالحبل . هنا التف حوله وفقد توازنه ليسقط من على السرج ...

لم يكن الناس قد رأوا أساليب رعاة البقر هذه .. وراحوا يصرخون :

— « المزيد .. المزيد !! »

سقط سير ساجامور فاقدًا النطق وحملوه لخيمته ، ففككت الأنشوطة بسرعة وأنا أعلم أنني سأستعملها من جديد . على الفور ظهر السير هيرفيس دي ريفيل ليواجهني بعد ساجامور .

انقض على فتحاشيته .. مر جواري كالوميض .. وخلال لحظة صار سرجه خاليًا ..

من جديد هلل الناس . كان علي أن أواجه آخرين منهم سير جالاهاد .. وفي النهاية وجدت أنني أواجه سير لانسلوت نفسه !!

أنا فخور . أواجه فرسان المائدة المستديرة أمام عيون الملك آرثر والملكة جنيفر ..

من مكان ما جاء الفارس الذي لا يقهر وحوله عاصفة ، وفي لحظة كنت قد أسقطته من فوق جواده وانحنيت أحيي الجمهور الذي جن جنونه . لقد كان النصر ساحقًا فلن يضايقني أحد بعد هذا ..

فجأة سمعت النفير يعلن قدوم مبارز آخر .. بدا لي هذا غريبًا ..

فجأة بحثت عن أنشوطتي فوجدتها اختفت . الساحر اللعين سرق السلاح الذي واجهت به كل هؤلاء . ومن خيمته ظهر ساجامور من جديد مندفعًا .. تظاهرت بأنني لا أراه حتى أقنع مرلين أن سحره فعال ، فصحت :

— « أعرف أن أذنك حادة السمع . لا تراني لكنك تسمعني . ولسوف تذوق طرف سيفي » .

كان المــوت واضحًا فى وجهه وأدركت أنه من المــستحيل أن أتفــادى سيفه . هذه المرة سيموت أحدنا .. ويمكن أن أعطيك اسم الجثة . هكــذا وقفنا نتبادل النظرات وكل منا ساكن كالتمثال ..

ثم اندفع ساجامور نحوى ..

صاح الناس :

— « اهرب .. أنقذ نفسك ! »

لم أتحرك ولو بوصة حتى صار هذا الرعد على بعــد خطــوات منــى ، فأدركت أن الوقت قد حان . أخرجت مسدسًا حربيًا من قرابى ، وتبدى برق ودوى صوت انفجار . وقبل أن يفهم أحد ما حدث كان المسدس قد عــاد لقرابه .

حصان بلا فارس والسير ساجامور على الأرض ميت .

اندهش الناس لأن الرجل ميت بلا تفسير . ثمة ثقب فى الدروع علــى صدره لكنه صغير جدًا ، لا يبدو ذا أهمية . طلب منى الملك أن أشرح سر هذه المعجزة ، لكنى ظللت واقفًا كالتمثال حيث أنا

قلت :

— « لو كان هذا أمرًا فسوف آتى .. لكن الملك يعرف القوانين .. على أن أنتظر حتى يطلب أحدهم مواجهتى » .

ساد الصمت .. فقلت :

— « حسن .. أنا أتحدى الجميع . كل فرسان إنجلترا أن يواجهونى .. ليس كواحد بل مرة واحدة » .

كنت أخدعهم فعلاً .. فى مواقف كهذه كن جريئًا والعب بورقك كله مرة واحدة . هجم بعض الفرسان فصوبت بمسدسى على أحــدهم .. بــانج .. سرج خال .. بانج سرج آخر خال .. كنت أعرف أن عنــدى اثنتى عشرة طلقة فى الغدارتين ، لكن لو لم تنجح عشر طلقات فى إقنــاعهم فلــسوف يقتلنى الفارس الحادى عشر ..

استنفدت تسع طلقات .. وبدأت أقنط .. لكن الفرسان توقفوا عنــد هــذا الحد وتراجعوا .. أنا قد فزت ..

أين مرلين ؟ لقد اختفى . كلما هزم سحر النصابين أمم ســحر العلــم ، بادر سحر النصابين بالفرار .

* * *



الفصل الحادى والعشرون

بعد ثلاثة أعوام

الآن لم يعد على أن أخفى أسرارى واختراعات القرن 19 العظيمة التى لدى . لقد جعلت القرن التاسع عشر ملكا للقرن السادس .

ثلاثة أعوام مرت ، وهى ذى إنجلترا بلد مستقر جميل .. المدارس فى كل مكان ، وهناك صحف ممتازة . هناك كتب عديدة صدرت ، منها كتاب عن النكات .. كان يحوى بعض النكات السخيفة التى نسمعها منذ 13 قرنًا ، وهذه المرة لم أتمالك إلا أن أشنق المؤلف .

لقد ولى الرق ، وصار كل الناس يدفعون نفس الضرائب . أدخلت الجراموفون والهاتف والقطار البخارى والسفينة البخارية .. وبدأت أستعد لإرسال بعثة لتستكشف أمريكا .

بدأت كذلك إنشاء خط السكك الحديدية بين لندن وكاميلوت . واستعنت بالفرسان لينقلوا الاختراعات الجديدة للناس .

كنت أفكر فى شيئين طموحين .. أولاً أردت أن أقضى على سلطة الكنيسة الكاثوليكية لتصير العقيدة البروتستانتية هى الأساس . ثم أردت أن تكون هناك استفتاءات بعد وفاة الملك ارثر .. استفتاءات يشارك فيها رجال ونساء .. لقد حكم آرثر البلاد نحو ثلاثين عامًا ، وحان الوقت كى أقدم للعالم شيئًا غير مسبوق : تغيير حكومى لا تراق فيه دماء .

كان تابعى كلارنس يشجع النظام الملكى ، لأنه يؤمن أن أى أمة اعتادت النظام الملكى ، سرعان ما تفنى وتضمحل لو فقدت الملكية . قلت له إن للملوك خطر .. لماذا لا يتم تنصيب أسرة من القطط لتكون مالكة ؟ .. لها نفس مزايا الملوك ولا خطر منها ولا تكلف شيئا هذه القطط لا تشنق أحدًا ولا تقطع رأس أحد .. ولا تسجن ولا تظهر قسوة .

جاءت ساندى التى صارت زوجتى ... جاءت مندفعة .

كانت تبكى وصوتها لا يخرج من شفتيها احتضنتها ولمست على شعرها محاولاً فهم ما يدور :

ــ « ماذا حدث يا عزيزتى ؟ تكلمى ؟ »

سقط رأسها على صدرها عجزًا .. وشهقت قائلة :

ــ « هللو ــ سنترال ! »

صرخت فى كلارينس :

ــ « هلم .. اطلب معالج الملك حالاً » .

خلال دقيقتين كنت أركع جوار فراش الطفلة .. عرفت التشخيص فورًا . دفتيريا ..

قلت للطفلة :

ــ « استيقظى يا عزيزتى هللو ــ سنترال » .

بصعوبة قالت :

— « بابا .. »

طلبت الكبريت وجلست جوارها أنتظر الاطباء . وجلبت دورق تنفس الدفتريا .

دخل سير لانلسوت في دروعه النفيسة . وكان متجهًا لقاعة المائدة المستديرة التى صارت مركزًا لتجارة الاسهم . نزع خوذته ووقف جوار الفراش ..

وضع فتيلاً لمصباح الكحول ثم بدأ يشعل دورق تنفس الدفتريا . صنعت لنا ساندى ما يشبه الخيمة ثم بدأنا تسخين الدورق مع بعض الكبريت والجير ليتصاعد البخار .

كان لانسلوت رجلا وسيما طيبا كان سيسعد زوجته لو تزوج ، لكن للأسف .. موضوع الملكة جنيفر ليس من الحكمة أن نتكلم عن هذه الأمور الآن ..

ظل ساهرا معى جوار الطفلة ثلاثة أيام ، حتى زال الخطر . ثم حملها بين ذراعيه وقبلها . بعدها ابتعد فى الردهة وسط عيون الفرسان المعجبين به . لسبب ما شعرت أننى لن أراه ثانية وقد آذى هذا قلبى .

قال لى الأطباء إن علينا إبعاد الطفلة لتستعيد قواها . يجب أن نظفر بهواء البحر ..

هكذا أقلعنا بسفينة وبعد أسبوعين وصلنا للساحل الفرنسى .

قدم لنا الملك الشاب فى المنطقة خدماته . وكانت قلعته الصغيرة مريحة .

لما نفد ما معنا من مؤن ، أرسلت السفينة لإنجلترا من جديد .

فى الوقت نفسه كنت أريد أن أعرف نتائج تجربة قمت بها لجعل الفرسان ينهمكون فى رياضة تستهلك طاقاتهم .. بدأت أعلمهم لعبة البيزبول .

* * *



الفصل الثانى والعشرون

التحريم

لكن طفلتى بدأت تتدهور من جديد وصارت حالتها خطرة . ظللنا نعتنى بها طيلة اليوم ..

كانت ساندى رقيقة بسيطة طيبة القلب . كانت زوجة وأمًا بلا أخطاء .. برغم هذا لم أتزوجها لأى سبب سوى أنه طبقًا لقواعد الفروسية هى ملكى حتى يظفر بها آخر .

مع الوقت ومع مرور الأحداث همت بها حبًا .. كنت غارقًا فى فجوة 13 قرنًا بين العالمين ، وقد سمعتنى بعد الزواج أصرخ وأئن أثناء النوم . عندما صحوت من النوم قالت لى إننى كنت أهمس باسم أحد أحبائى الذين أفتقدهم . قالت لى إنها ستطلق نفس الاسم على الطفلة . سألتها عن الاسم فقالت فى مرح :

— « هللو .. سنترال !! »

احتكت عظامى ببعضها من فرط الضحك ، لكنى لم أظهر ضحكاتى . كنت استعمل العبارة التى يستخدمونها فى الهاتف فى زمنى .. آلو سنترال !. حسبتها هى اسمًا وأصرت على تسمية ابنتها به .

لمدة أسبوعين عشنا بعيدين عن العالم . هذا شعور لا يمكن وصفه عندما ترى ابنك فى عالم الظلال ، ثم تجده يستعيد قواه .. ثم ينير العالم بضحكته ..

لكن السفينة لم تعد قط بعد رحلتها إلى كاميلوت . صعدت إلى هضبة عالية تراقب البحر . لا أرى شراعًا واحدًا .. البحر خال تمامًا .

عدت وأخبرت ساندى بهذه الأخبار . ماذا حدث ؟ هل تم غزو كاميلوت ؟.. زلازل ؟.. وباء ؟ ..

لا جدوى من التخمين لذا اقترضت من الملك سلاح بحريته .. سفينة صغيرة جدًا لكنها تصلح .

ودعت ساندى وطفلى وعدت وحدى إلى إنجلترا . لم يكن الوداع سهلاً . فقد شعرت أنها المرة الأخيرة ..

صباح اليوم التالى بلغت إنجلترا . كانت هناك سفن فى المرفأ فى دوفر . لكنها كانت خالية بلا علامات حياة ..

فى كانتربرى كانت الشوارع خالية تمامًا ..

رأيت جنازة صغيرة هى أسرة تمشى وراء تابوت . لكن لا صلوات ولا شموع ولا أجراس .. بكاء فقط مروا بالكنيسة ولم يدخلوها . ورأيت أن جرس الكنيسة مربوط بحيث لا يدق ..

هنا فهمت المصيبة .. هذا ليس غزوًا بل [illegible]

لقد عاقبتني الكنيسة بالحرمان وفر الكل مني . لم يعد أمامي سوى التخفي والتحرك وحدي .

رحلة تعسة .. صمت في كل مكان . الناس لا يتكلمون ولا يمشون معًا .. كل رجل وحده مطرقًا برأسه .

أردت ركوب القطار لكاميلوت لكن المحطة كانت خاوية .

وصلت هناك في ساعة متأخرة . ورأيت الظلام والصمت في كل مكان . يبدو أن الكنيسة قد تولت كل شيء وقضت على الحضارة التي صنعتها . بدت لي القلعة مظلمة فوق قمة الجبل .. ولا يوجد فيها ضوء ..

كانت البوابة مفتوحة والجسر منصوبًا .. فدخلت .. لا صوت سوى صوت كعبي ..

* * *

كان كلارينس هناك وحده ..

كان غارقًا في التعاسة والشجن . فلما رآني وثب وصاح :

— « ما أروع أن يقابل المرء شخصًا حيًا من جديد ! »

عرفني كأنني غير متنكر وهذا أثار رعبي .. سألته :

— « هلم .. قل لي سر هذه الكارثة .. ماذا حدث .. »

— « لو لم تكن هناك ملكة جنيفر لما حدث هذا بسرعة .. إنها الملكة .. »

— « وسير لانسلوت ؟ »

— « نعم » .

— « احك التفاصيل » .

— « كان كل فرد في المملكة يعرف قصة الملكة ولانسلوت .. فيما عدا الملك آرثر .. وفي ذات يوم اجتمع كل أبناء أخ الملك وموردريد وإجرافين .. وقرروا أن يلفتوا نظر الملك آرثر الساذج الى علاقة زوجته جنيفر بالسير لانسلوت . دار جدل تخلله صياح ، ثم دخل الملك فسمع ما يقال . تم عمل كمينا للسير لانسلوت ليرد الملك وموردريد .. وقد مشى لانسلوت فيه . لكن الفارس العظيم استطاع أن يجندلهم جميعه ما عدا موردريد ..

« انقسم فرسان المملكة بين مؤيدي الملك ومؤيدي لانسلوت .. إنها الحرب !.. أرسل الملك الملكة للحرق كي تطهرها النار ، لكن أنقذها لانسلوت وزمرته ومات فرسان كثيرون » .

— « آه .. أنت تمزق نياط قلبي » .

— « باقي القصة هو الحرب .. حرب بسيطة . عاد لانسلوت لقلعته وجمع مجموعة من الفرسان وبدأ القتال ، حتى أعلنت الكنيسة السلام بين المتحاربين لكن سير جواين لم يرق له السلام . كان متضايقًا نوعًا بسبب ذبح أخويه .. وقد أقنع الملك آرثر بأن يصحبه للحرب ضد لانسلوت . وقد ذهب آرثر معه وترك موردريد يدير شئون المملكة أثناء غيابه » .

— « حكمة الملوك المعتادة ! »

— « بالفعل .. راح موردريد يرتب كل شيء ليبقى ملكًا للأبد .. رتب أن يتزوج الملكة جنيفر لكنها هربت منه لبرج لندن . أراد أن يلحق بها لكن أسقف كانتربرى حكم عليه بالحرمان . عاد الملك فحاربه موردريد في دوفر وفي كانتربيرى . وفي النهاية تم الاتفاق على أن يحكم موردريد كنت طيلة حياة آرثر ثم إنجلترا كلها بعد وفاة الأخير . على أننا حققنا شيئًا مهمًا بعد رحيلك : المراسل الحربي !.. »

— « وأين الملك الآن ؟ »

— « للأسف .. لقد مات من آثار جراحه بمجرد عمل اتفاق السلام » .

دهشت لهذا الخبر ، فلم أتوقع أن شيئًا يمكن ان يمس الملك ..

— « والملكة يا كلارينس ؟ »

— « صارت راهبة في ألمزبيرى » .

— « ما أكبر هذه التغيرات في وقت قصير .. !.. وماذا أفعل أنا ؟ »

— « سأخبرك .. الكنيسة هي السيدة اليوم . الحرمان يشملك ويشمل موردريد ولن يرفع عنك في حياتك » .

— « سوف أحاربهم بأتباعي وقدراتي العسكرية .. »

— « لا ترهق نفسك .. لم يعد لديك أكثر من ستين تابعا . »

— « وماذا عن مدارسنا وكلياتنا و ... » .

— « أنت لم تطرد التطير والايمان بالخرافات من الناس .. ولن يجرؤ أحد على مخالفة أمر الحرمان .. لن يقف معك أحد .. أنست ذكي لكن الكنيسة أذكى .. ألا تفهم أن الكنيسة هي التي دبرت إبعادك عن طريق نصيحة الأطباء ؟ »

— « هل تمزح ؟ »

— « كل بحار وكل ضابط على سفينتك كان تابعًا للكنيسة .. لقد كانت أنباء تصلنا أنك استقررت في كادير ثم من هناك سوف تنطلق في رحلة حول العالم لصحة ابنتك » .

— « أنا لم أذهب لكاديز قط !! . على الأقل كنت سأكتب هذا » .

— « هذا ما خمنته .. على كل حال قمت بجمع جيش صغير من 52 شابًا أكبر من الرابعة عشرة وأقل من السابعة عشرة . اخترت الصبية لأن الكبار قد تشربوا التطير والخرافة حتى العظام . أمر الحرمان قد كشفهم أمام نفسهم وكشفهم أمامنا .. لكن هؤلاء الصبية أرض بكر لأفكارنا ، وقد زرت كهف مرلين .. ليس القديم بل الجديد .. لقد جعلته صالحًا لتحمل الحصار .. »

— « فكرة ممتازة » .

— « هناك من يحرسون المكان .. كما أنني لغمت المكان بالديناميت لو أردنا تدمير آثار الحضارة هذه » .

— « جميل .. هذه ضرورة عسكرية .. أشياء كثيرة تغيرت على كل حال » .

ــ « بعد هذا بنينا سلكًا شائكًا .. أنت علمتنا الطريقة منذ عامين . »

ــ « تذكرت » .

ــ « هناك 12 دائرة متداخلة مركزها الكهف نفسه » .

اقترحت عليه توصيل هذا السلك الشائك بدائرة كهربية بحيث تركض الخيول فتصطدم به وتسقط ميتة كما أننا قمنا بزرع الغام تحوط بالمكان .. سيكون منظرًا رائع الجمال .

ــ « كلارينس .. أنت قمت بعمل ممتاز فعلاً » .

ــ « كان لدينا وقت كاف ..

ــ « الآن ونحن مستعدون لن نقبع في مكاننا سوف نبدأ نحن بالهجوم ! »

ــ « هل تعني هذا ؟ »

ــ « طبعًا .. الدفاع ليس سياستي سوف نبدأ الآن ونعلن إنجلترا جمهورية ! والآن عليك أن تكتب هذا الإعلان :

بما أن الملك قد مات بلا وريث ، فقد صار من واجبي أن أستعمل سلطتي التشريعية حتى تخلق حكومة .. انتهت الملكية فلا وجود لها .. ستعود القوى السياسية لأصلها بين صفوف الشعب . لن تعود هناك طبقة نبلاء تملك حقوقًا بالمولد . الدين حر والكل سواسية .

إنني أعلن الجمهورية .. وعلى المواطنين البريطانيين أن ينتخبوا رئيسًا وممثلين لهم .

الرئيس - من كهف مرلين » .

قال كلارينس :

ــ « لكن هذا يخبرهم بمكاننا .. هذه دعوة لهم للهجوم . »

ــ « هذه فكرتي .. الاستفزاز والبدء .. والآن يجب أن نسرع لكهف مرلين » .

ــ « لدي دراجتان خلال عشر دقائق . سوف تحل اللعنة غدا عندما يقرأ الناس هذه الورقة .. »

* * *

الفصل الثالث والعشرون

معركة حزام الرمل

فى كهف مرلين مع كلاريس و52 شابًا بريطانيًا نظيف العقل . كنا نعد كل شيء وكان هؤلاء القوم يصدقوننى ويعرفون أننى أعنى ما أقول .

مضى أسبوع من الانتظار ، لكنى لم أشعر بالملل لأنى كنت منهمكا فى الكتابة . كنت أكتب مذكرات هذه المغامرة ، كما كتبت خطابات لساندى زوجتى . كنت أتخيل (هللو سنترال) فى الفراش تغفى وتضع قبضتها فى فمها وتمد قدميها متثائبة .

كان جواسيسى فى الخارج يرسلون لى الأخبار .. هناك شحن دينى مستمر باعتبار هذه حرب الكنيسة . كل النبلاء قادمون للحرب . . .

أنا أحمق !... افترضت أن الناس ستتحمس لى ، لكن تقطيبة الإقطاعيين والنبلاء فى وجوه الناس كافية لتجعلهم كالخراف . فى نهاية الأسبوع صار شعار إنجلترا كلها هو (الموت للجمهورية) وصارت إنجلترا كلها ضدى .

كان الصبية الذين معى متوترين .. تؤرقهم فكرة أن إنجلترا كلها ضدهم . هناك ثلاثون ألف فارس ظلوا أحياء بعد الحرب الأخيرة وكلهم يزحفون نحونا الآن !.. كل إنجلترا ضدنا !..

قلت للصبية :

ـ : يا شباب .. إن قلوبكم فى المكان الصحيح . أنتم فكرتم فى الصواب . أنتم قلب إنجلترا .. هم ثلاثون ألفًا .. هناك قوم من العامة سيمشون خلف الرب ثم يتقاعسون .. بينما يبقى الفرسان فقط . هل تخشونهم ؟ »

دعوا المهاجمين يأتوا .. سيكون يومًا صاخبًا ..

عند الفجر جاء المراقب ليخبرنى عن كتلة سوداء فى الأفق تتحرك ..

تم إعداد الإفطار بسرعة فأكلنا ثم أصدرت تعليماتى للشباب ..

أشرقت الشمس فرأينا الحشد القادم يتحرك بسرعة كموج البحر . ملات الرايات ثم سقطت الشمس على الدروع فتوهجت .. كان مشهدا جميلاً لا أنكر هذا ..

ودوى صوت النفير .. وتحرك الجمع نحو حزام الرمال المحيط بالكهف .. فتوقف تنفسى ..

الحشد يقترب . اقرب فأقرب ... حتى اختفى حزام الرمال .

رباه .. سرعان ما دوى الانفجار كالرعد .. وتطايرت الأشلاء بينما خيمت سحابة دخان ثقيلة على الأرض .. لقد انفجرت الألغام ..

ضغطت زرًا فانفجرت كل المصانع التى شيدتها كان هذا ضروريًا حتى لا يستولى العدو على سلاحنا ويحاربنا به قضينا العشر ربع ساعة فى

حياتنا ونحن ننتظر أن ينقشع الدخان لنرى .. في النهاية انقشع بالفعل فرأينا أنه لا يوجد شخص حي !

لقد حفر الديناميت خندقًا اتساعه مئة قدم ..

لا يمكن عد الموتى لأن هذه لم تعد أجسادًا بل أشلاء مختلطة بالحديد .. لن تكون هناك إمدادات . هذه آخر مواجهة لفرسان إنجلترا . أول تجربة لهم مع حروب الإبادة المعاصرة ..

خطبت في شبابي الـ 52 مهنئًا بالنصر ومشجعًا لهم على الاستمرار . دوى التصفيق فقلت :

ــ « الحرب مع بريطانيا قد انتهت .. لقد خرجت بريطانيا كدولة من الحرب .. لكن ما زال لنا صراع مع الفرسان .. فرسان بريطانيا قد يموتون لكنهم لا يهزمون . ما دام أحدهم ما زال حيًا فالحرب لم تنته » .

عدنا نرتب التحصينات ورتبنا طريقًا للفرار . وقد وجد الشباب جدولاً قريبًا فقمنا بتحويل مجراه إلى معسكرنا بحيث يتدفق الماء في الخندق حسب رغبتنا .

جاء الليل .. قال أحد المراقبين إنه يرى معسكرا على مرمى النظر بالتلسكوب . أدركت أنهم هناك يراقبون ردود أفعالنا ... سوف يحاربون بشجاعة في الليل .. لكني خمنت ما ينوون عمله .. خمنته لأنه الشيء الذي كنت سأعمله لو كنت في مكانهم وأتمتع بنفس الجهل ..

أخبرت كلارينس بتوقعي فوافق عليه . كنت أشعر بتأنيب ضمير ، لذا كتبت للفرسان رسالة :

ــ « إلى قائد الفرسان الثائرين . كفاحكم بلا جدوى . نعرف مدى قدراتكم وأنكم لا تستطيعون حشد أكثر من عشرين ألف فارس ضدنا .. لا فرصة لكم . نحن مسلحون وعددنا 52 . ليس 52 رجلاً بل 52 عقلاً .. نحن نمنحكم حياتكم مكرمة لعائلاتكم .. فانتهزوا الفرصة . سلموا أسلحتكم واستسلموا للجمهورية .

اقترحت على كلارينس أن أرسل لهم الرسالة مع رسول ، فضحك كثيرا وقال :

ــ « أنت لا تفهم النبلاء . هلم ناولني هذه الرسالة كأنني جيش العدو » .

ناولته الرسالة وأنا أضحك فمزقها ، وقال كأنه أحد هؤلاء النبلاء :

ــ « مزقوا هذا الحيوان وأعيدوه في سلة لسيده الوغد الذي أرسله . لا توجد لدينا إجابة أخرى ! »

كان على حق .. كان أدرى بما سيحدث ، وقد أدركت سذاجة فكرتي .

عندما صار الظلام دامسا غادرت الكهف وزحفت قرب خطوط المعسكر . سمعت حفيفًا وصوت معدن .. ثم رأيت مئات الرءوس الصغيرة تتحرك ببطء .. هل هم فعلاً ؟ من الممكن أن تخطئ عينيك بكون خيالك يخطئ .

لكنى أدركت أن ما أراه صحيح .. هؤلاء القوم أعدوا لنا حفل مفاجآت صغيرًا .. غالبًا عند الفجر .

عدت مسرعًا فقد رأيت ما يكفى ..

أوقظت كلارنس وقلت له : إن أعداءنا يهجمون هجمة رجل واحد .. هم يعبرون الخندق الآن ..

قال كلارنس :

ـ « سوف يرسلون رجلى كشافة للتأكد من أن الأمور مواتية .. أقترح أن تطفئ الأضواء على الأسوار » .

ـ « فعلت ذلك فعلاً .. أنت تعرف أننى أتمتع بكرم الضيافة » .

تحركنا قرب السور المكهرب فرأينا شبح رجل .. هذا فارس قد استند للسور فتفحم والدخان يتصاعد منه ..

ثم ظهر فارس متسلل آخر .. زحف نحو الرجل المتصلب ووقف جواره . لا بد أنه مندهش من وقفته الثابتة ، ثم وضع يده عليه قائلاً :

ـ « هل أنت بخير يا سير مى .. »

وفجأة تصلب وخمدت حركته . لقد قتله رجل ميت !.. هذا أقسى ما فى القصة ..

جاء باقى المتسللين فى الظلام وكل واحد يمد سيفه للأمام يتحسس به السلك الشائك .. من حين لآخر نرى شرارة زرقاء ونشم الشياط ..

مساكين !.. لقد كانت الكهرباء قوية لدرجة أنها تقتل قبل أن تصرخ الضحية .

ثم بدأ الهجوم الأعنف وتكوم جبل أسود ممن ضربتهم الكهرباء . حوصر معسكرنا بالجثث . وبرغم هذا واصلوا التقدم واجتازوا الدائرة الثانية ..

هنا ثلاث دوائر من أجساد ميتة ..

ضوضاء الموت تتعالى هذه المرة إذ يموت 11 ألف رجل . بينما يتقدم عشرة آلاف آخرون عبر الخندق .. هذا وقت إنهاء المأساة ...

أطلقت رصاصتين بما معناه :

ـ « افتحوا المياه ! »

فجأة دوى هدير وعلى الفور انفجر الماء عبر الخندق وولد نهر عمقه 25 قدمًا وعرضه مئة قدم . هكذا هلك ثلاثة أرباع الفرسان غرقًا بينما تكفل مسدسى بالباقين .

لكن الحظ خاننا .. خلال ساعة من هذا النصر وقع خطأ جسيم منى .. لكن لن أحكى لكم .. فلتنته المذكرات هنا ..

* * *

الفصل الرابع والعشرون

حاشية كتبها كلارينس

أنا كلارينس أكتب بدلاً منه . لقد قرر الرئيس أن يخرج ليتفقد الجرحى ، برغم أننى قلت له إن هذا غير آمن .

رأينا أول رجل يحتضر فانحنى الرئيس على ظهره وربت عليـه . هنـا استدار الرجل وعرف الرئيس فطعنه . كان هذا هو سير ميلياج راونــس . وقد قتلناه وحملنا القائد للكهف وعنينا بجرحه الذى لم يكن خطيراً . وسط هذه الظروف جاءت فلاحة طيبــة بسيطة تساعدنا .. لم ندر أنها الـساحر مرلين متنكرًا . عرضـت أن تطهـو طعامنا .. وقـد رحبنا بـذلك لأننـا مشغولون .

كنا فى مصـيدة .. لو لم نتحـرك فلسوف نموت تحت حصار الجثث .. ولو تحركنا فلسوف نفقـد حصانتنا .. الحـق أن الأجسـاد الميتة نشرت المرض بيننا ..

صحوت من النوم لأجد النصاب يأتى بحركات حول رأس الرئيس . فقلت للمرأة :

ــ « توقفى ! ماذ تعملين ؟ »

قالت بلهجة المنتصرين :

ــ « لقد انتصرتم والآن هزمتم .. سوف ينام 13 قرنًا .. أنا مرلين ! »

ثم دوى الضـحك السخيف كأنه ثمــل . ومشى يترنح فاصطدم بـسلك مكهرب .. رحل عن عالمنا والضحكة على شفتيه يحملها معه للجحيم .

الرئيس لم يتحرك ولم يفق من نومه .. وهكذا قررنا أن ننقله إلى مكان فى الكهف لا يجده أحد . واتفقنا على أن يكتب أحدنا القصة كاملة ويتركها مع الرئيس الذى نحمل له كل ولاء .

* * *

نهـاية النص

جاء النهار فوضعت النص جانبًا . لقد توقف المطر وصار العالم رماديًا حزينًا .

ذهبت لغرفة الغريب ووقفت جوار الباب للموارب أصغى . قرعت البـاب فلم يرد أحد .. نظرت من الثقب فوجدته يغفو على ظهره ويتكلم ويـشوح كأنه مريض يهذى .

كان يقول :

ـــ « ساندى .. لقد عدت .. لكم اشتقت لك . لا تفارقينى .. أنت باهتـة جدًا كأنك سحابة دخان لكنك هنا . أنا أراك . لقد تهـت للحظـة فحـسبتك رحلت ..

ساندى .. اعتن بى .. ظلى بقربى .. لا تجعلينى أجن ثانية .. »

وظل يهلوس ويقول كلامًا غير مترابط لفترة ..

ثم ساد الصمت . وبدا لى كأنه يغطس فى المـوت . وبـدأت حـشرجة الموت فى صوته وبدا كأنه ينصت .. ثم قال :

ـــ « هذا هو الملك !... انزلوا الجسر المعلق !... استعدوا للقتال .. »

لكنه لم يستطع إكمال هذه اللحظة الدرامية الأخيرة .

مارك توين

1889

روايات عالمية للجيب

■ صدر من هذه السلسلة ■

81



أمريكى في بلاط الملك

هذا رجل شمالي من ولاية كونيكتيكات الأمريكية ممن يسمونهم (يانكي) ، وجد نفسه ينتقل عبر الزمن والمسافات ليكتشف أنه في عصر الملك آرثر وفرسان المائدة المستديرة والساحر مرلين ، ويكون عليه أن يبقى حيًا ، وينقل جذوة الحضارة لهذا المجتمع المتخلف المكتفي بغبائه وقناعاته .

مارك توين بلسانه الساخر الحاد وخياله الخصب يحكي لنا هذه المغامرة الممتعة ، والتي قلدتها عشرات القصص والأفلام بعد ذلك .

العدد القادم

www.rewayatmasreya.com
facebook.com/rewayatmasreya
الخط الساخن 19350

